سلسلة تربويَّات

الجزء الثاني

فقه الاستدراك

ألقيت عام ١٤٤٣ من الهجرة النبوية

تقديم

أنا غير بنت عبد السميري

غفر الله لها ولوالديها

تقدّم لكم مدوّنة {عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ} تفاريغ من دروس الأستاذة الفاضلة

أناهيد بنت عيد السميري حفظها الله

ونسأل الله أن ينفع بها.

https://anaheedblogger.blogspot.com

تنبيهات هامة:

- منهجنا الكتاب والسنّة على فهم السّلف الصالح.

- هذه التّفاريغ من عمل الطّالبات ولم تطّلع عليها الأستاذة حفظها الله.

- الكمال لله -عزَّ وجلَّ-، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم من خطأ فمن أنفسنا والشّيطان، ونستغفر الله.

والله الموفّق لما يحبّ ويرضى.



اللقاء ١ الأحد ١٥ صفر ١٤٤٤

(مقدمة في فقه الاستدراك)

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، نحمد الله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا، ونسأله بمنه وكرمه أن يجعلنا من أهل القرآن أهل الإيمان، وأن نكون ممن صدقوا الرحمن في تربية أنفسهم وتزكيتها، وها نحن -بإذن الله- نبدأ اليوم بداية جديدة في الكلام عن التربية بعنوان: **تربويات**

أسأل الله -عز وجل- أن يجعلها لقاءات مباركة، وأن يعيننا فيها على تزكية أنفسنا، واستدراك ما فاتنا، من الأمور التي على الإنسان أن يربي نفسه فيها ويعتني بها -وهذا سيكون موضوعنا بإذن الله- هو استدراك ما فات، نحتاج أن نربي أنفسنا على فقه الاستدراك علنا بهذا الفقه نستطيع أن نُلزم أنفسنا بالصواب والحق.

ولا أحد يستطيع أن يقول أن شيئًا لم يفته، وإنما الناس يختلفون في طموحاتهم وهممهم، وكثير منا إذا التفت إلى ماضيه -مهما كان عمره-، سيجد أن الحسرة تصيبه، وينزل عليه شيء من الكآبة،

ويحتار كيف يعوض ما فات، وإذا نظر إلى غيره سواء كان في شأن العلم، أو في شأن الدين، أو في شأن البيوت والزواج والأبناء، سيجد أن غيره قد تعلم، قد تفقه، قد تقدم، قد بنى، قد تزوج، مع أن ظروفهم متشابهة، فهذا ربما تصيبه حالة نفسية من الهم والغم والحزن، وخصوصًا لو كانت هذه الأمور فيما مضى تحت يده وهو قد فرط فيها.

فماذا يفعل مثل هذا؟ كيف يستدرك ما قصر فيه؟

أيضًا ربما بعض الناس يكون قضى عمرًا طويلًا في بدعة، أو قضى عمرًا طويلًا في أمر لا يستحق أن يقف عليه، ثم اهتدى، لكن يبقى قلبه متقطعًا على ما مضى، وهذا كثير ما يكون في الشباب الذين يترددون بين حالة الهداية والغواية، ثم يسمع منادي الإيمان يدعوه إلى الهدى فيقبل، لكن يبقى في قلبه كيف يستدرك؟

وليس فقط من ذهب في الغواية، بل حتى أحيانًا يكون طالب علم أنفق سنوات عديدة من عمره، لكن لم يهتدِ إلى الطريق الصحيح في طلب العلم، ربما تعجل التصدر قبل التأهل، ربما شعر بالورطة في منتصف الطريق، ويريد أن يستدرك، فهنا السؤال: **كيف يستدرك الإنسان ما فاته؟**

هذا السؤال -الذي هو قضية الاستدراك- قضية شغلت أذهان كثير من الصحابة -رضي الله عنهم-، فقد أسلم كثير منهم في زمن متأخر ورأوا من تقدم -رضوان الله عليهم-، ورأوا من أكثر من العمل والجهاد والدعوة، فصرحوا بعبارات تشير إلى هذا الأمر، وهذه الحاجة إلى الاستدراك كانت سببًا لخطة طويلة المدى في حياتهم إلى مماتهم، وهم في هذه الخطة يبذلون لكي يستدركوا.

كلنا جميعًا مهما كنا باذلين جهودنا لا نستغني عن الاستدراك، لأن سهام الغفلة وضربات الشيطان لا بد أن تُوقع فينا بعض الجراحات، لأن هذه هي الحياة؛ بينك وبين الشيطان معركة، قد ينتصر علينا في زمان فنغفل، ونستيقظ برحمة الله فنفكر في الاستدراك.

ونبدأ الآن بإذن الله في فهم ماذا نقصد بالاستدراك، ونحن نتكلم عن تربية النفس، وتربية وتوجيه من هم في مسؤوليتنا أن نربيهم وننشأهم على الحق.

الاستدراك في اللغة على معنيين:

المعنى الأول: بمعنى إصلاح الأمر وتلافي ما حصل فيه من خطأ أو نقص، وهذا دائمًا تجده في كتب أهل العلم؛ هناك مثلًا كتاب يسمى (المستدرك على الصحيحين)، هذا الكتاب ليس انتقادًا

للبخاري ومسلم، بل المقصود أنه يورد الأحاديث التي جاءت على شرطهما ولم يذكراها.

المعنى الثاني: تدارك ما فات، بمعنى الإدراك واللحاق، فنقول مشيت حتى أدركته، فالمقصود هنا أن المستدرك هو من يشمر عن ساعد الجدّ، ويشتغل بالتعويض لما فاته، حتى يبلغ درجة الماشي من زمن طويل في وقت قصير، وهذا أمر نغيظ به الشيطان، ونرضي به الرحمن، فلا نستسلم للإحباط، ولا نستسلم للكسل، بل نبذل جهودنا في العمل، ونستدرك في زمن قصير ما فاتنا في وقت طويل.

وهذا النقاش سنناقشه حول ما يصلح النفس، حول المكاسب التي علينا أن نستدركها لكي نصحبها وتصحبنا في الجزء الثاني من حياتنا والأخير، أما هذا الجزء الأول فإنه جزء العمل، ونحن نريد صلاح هذا الجزء، ونريد أن نستدرك ما فيه لأجل أن يكون وقت الجزاء جزاءنا موفورًا، وأن نكون -ووصفه سبحانه وتعالى أنه شكور- من المشكورين على أعمالنا، فنتدارك ما فات، فنمشي ونبلغ درجة الماشي من زمن طويل في وقت قصير.

هذا من الأمور التي تشرح الفؤاد؛ عندما تشعرين أنك قد فاتك مثلًا حفظ القرآن في شبابك، وفاتك أن تلحقي القوم في إجادتهم

لكتاب الله، وفي تلاوتهم له أناء الليل وأطراف النهار بسبب انشغالات بأيّ سبب كان، لا نفكر في السبب السابق لكن تعلمين أنه بفقه الاستدراك يمكنك أن تدركي ما فاتك.

أو يكون الإنسان فرّط في تربية أبنائه، ونشؤوا على غير ما يريد الإنسان المؤمن فتشعرين بالحسرة، وتظنين أنك لا تستطيعين أن تستدركي، فيقال لنا لا، وهذا من فضل الله؛ أن هناك فرصًا لنا لنستدرك ما فاتنا، ورب العالمين قد جعل للاستدراك في حياتنا صورًا يمكن أن نتعلم منها، فانظروا مثلًا عندما نصلي ونسهوا -يحصل سهو-، فنستدرك النقص الحاصل في الصلاة بسجود السهو، بل حتى لو بطلت الصلاة نستدركها بإعادتها، فباب الله -عز وجل- واسع، والمسير إليه حتى لو في اللحظات الأخيرة من حياة الإنسان، لو استدرك ما فاته وكان صادقًا مخلصًا في ذلك فإن رب العالمين يقبله ويشكره ويغفر له، فلنستفِد من هذا الأمر.

في الشهر الماضي تكرر إرسال بعض المقاطع تداولها الناس؛ أحدها لامرأة، ومرة لرجل، كبار في السن، ربما تعدوا التسعين من عمرهم، ثم أذن الله لهم أن يتداركوا ما فاتهم، فيشهرون إسلامهم، ويكون هذا الأمر منهم -الذي هو مجرد أيام وربما لحظات- فيغفر لهم ما مضى كله -بإذن الله- إذا قبلهم الله، فالله

يطمعنا في رحمته فلنطمع جميعًا في رحمة الله، ولنفقه معنى الاستدراك، وليكن عندنا فقهًا في الاستدراك.

الاستدراك: هو عملية تعويض لما فات بالاجتهاد فيما هو آت، ونؤكد هنا أن ما يفوت الإنسان إما أن يكون في شأن الدنيا، أو شأن الدين، والشريعة جاءت بحفظ أمر الدنيا كما جاءت بحفظ أمر الدين، لكن فوات الدين هو أخطر من فوات الدنيا، فيكون اهتمامنا وانشغالنا بما فاتنا من الدين، وتكون خططنا لإصلاح ما بقي في زماننا، وهذا لا يعني بحال أن يكون عندنا أمر متصل بالدنيا ويمكن إصلاحه وننتفع به ولا نصلحه، فليس هذا المقصود، وإنما المقصود أن نرتب الأولويات.

لو نظرنا إلى ما في الشريعة من اهتمام بهذا الإنسان بأمر دينه ودنياه، سنفهم من هذا أن الشريعة تريد منك أن تستدركي ما تستطيعين، فإذا كان هناك فرص في الدنيا ستنفع حياتك وتستقر حياتك، ومن ثم تنفع دينك، فالحمد لله استدركي هذا وهذا، أما إن كان استدراك الدنيا بمعنى تضييع الدين سنقول لا، أنت الآن يجب عليك أن تستدركي دينك، والدنيا هي التي ضيعت عليك في البداية.

نريد أولًا أن نؤصل مسألة أن الشريعة أتت لصلاح الدين والدنيا، وبعد ذلك نؤكد أنه إذا لم يكن هناك تعارض بين الصلاحين -بين

صلاح الدين والدنيا- فلنمضِ بهما جميعًا، أما إذا كان صلاح الدنيا واستدراكها سيضيع الدين، فالجواب بالتأكيد لا، نحن نريد أن نستدرك الأهم الذي سيصحبني عندما أنتهي من هذه الرحلة هنا، يصحبني في دار الجزاء.

سأبدأ بما يدل على أن الشريعة جاءت لصلاح الدين والدنيا، لو فكرنا فيما أمرنا به رب العالمين من قراءة سورة الفلق، وسورة الناس مع قراءة سورة الإخلاص، سنجد أن رب العالمين عندما أمرنا في سورة الفلق بالاستعاذة استعذنا بصفة من صفاته (رب الفلق)، والمستعاذ منه ثلاثة أنواع من الآفات؛ الغاسق، والنفاثات، والحاسد.

المقصود بـ (الغاسق إذا وقب) الشرور التي تظهر في الليل من دواب ولصوص وغير ذلك، و (النفاثات) يعني شر السواحر اللاتي ينفثن في العقد، وشر (الحاسد) هو إذا تعرض أحد لأحد بالحسد، وفي سورة الناس نستعيذ (برب الناس وملك الناس وإله الناس)، والمستعاذ منه آفة واحدة وهي وسوسة الشيطان.

ستلحظين أن سورة الفلق فيها سلامة النفس والبدن، وسورة الناس فيها سلامة الدين، بهذا أصّلنا أن الشريعة تحفظ عليك دينك

ودنياك، وسنزيد أيضًا -بنفس النظر إلى هاتين السورتين ونخرج بنتيجة- أن الشريعة تقدم أمر الدين على أمر الدنيا.

الدلالة على أن أمر الدين مقدم على أمر الدنيا:

إذا نظرت إلى سورة الفلق ستجدين أن المستعاذ به في سورة الفلق سبحانه وتعالى مذكور بصفة واحدة، وهو أنه (رب الفلق)، في مقابل أن المستعاذ به في سورة الناس ذُكر سبحانه وتعالى بصفات ثلاثة؛ (رب الناس)، و (ملك الناس)، و (إله الناس)، الفرق بين الموضعين أن الثناء على الله في الاستعاذة به والدعاء يتقدر بقدر المطلوب، فالمطلوب في السورة الأولى كان سلامة النفس والبدن، والمطلوب في السورة الثانية سلامة الدين، فكان في الأولى باسم واحد من أسمائه (رب الفلق)، وفي الثانية بثلاثة أسماء له سبحانه وتعالى؛ (رب)، و (إله)، و (ملك)، وهذا تنبيه أن مضرة الدين وإن قلت أعظم من مضار الدنيا وإن عظمت.

الدين شأنه عظيم، وصلاحه يكون في الدنيا، عندما تكون الدنيا جيدة للإنسان يستطيع أن يقيم فيها دينه، لكن لو فسدت الدنيا عليه فسادًا لا يستطيع معه إقامة شريعة الله، سيكون هذا سببًا لفساد دينه.

إذن أصّلنا أن أمر الدين وأمر الدنيا الشريعة تأمرك بإصلاحه، لكن أمر الدنيا متأخر عن أمر الدين، ولهذا عندما نسمع قوله تعالى {مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ} [الحديد:22].

المصيبة مقدرة قبل أن تحصل، فلا تأسَ على ما فاتك، ولا تفرح بما آتاك، نوطن أنفسنا على ذلك، يقول ابن كثير في تفسير هذه الآية: "أَيْ: أَعْلَمْنَاكُمْ بِتَقَدُّمِ عِلْمِنَا وَسَبْقِ كِتَابَتِنَا لِلْأَشْيَاءِ قَبْلَ كَوْنِهَا، وَتَقْدِيرِنَا الْكَائِنَاتِ قَبْلَ وُجُودِهَا، لِتَعْلَمُوا أَنَّ مَا أَصَابَكُمْ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكُمْ، وَمَا أَخْطَأَكُمْ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكُمْ، فَلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ، فَإِنَّهُ لَوْ قُدِّرَ شَيْءٌ لَكَانَ"

إذن هذه الآية تهوّن ما فات على الإنسان من أمر الدنيا، في مقابل في الحديث عن ابن عمر -رضى الله عنه- أن الرسول -صلى الله عليه وسلم- قال: ((الذي تَفوتُه صَلاةُ العَصرِ كَأنَّما وُتِرَ أهلَه ومالَه)) [رواه البخاري]، أي في تركه لصلاة العصر مصيبة عظيمة تعدل مصيبة من نُزع منه أهله وماله، فبقي منفردًا في الدنيا، يا لها من مصيبة عظيمة!

فيعود الأمر الآن أن الشريعة أمرتنا بالعناية بأمر الدنيا وأمر الدين، لكن أمر الدنيا مؤخر وأمر الدين مقدم في كل الأحوال؛ في القيام به، أو في الاستدراك.

الدنيا ممر والآخرة مقر ومستقر، ولو رأيت في الدنيا من يؤثر خزفًا يفنى على ذهب يبقى لاتهمته في عقله، فكيف بما بين الدنيا والآخرة من تفاوت، فإذا اجتمع فوات الدين مع فوات الدنيا قضى همّ فوات الدين على همّ فوات الدنيا.

وانظروا إلى الصحابة الكرام عندما حصلت لهم الهزيمة يوم أحد بعد أن خالفوا أمر النبي -صلى الله عليه وسلم-، وفاتت الغنيمة، بعد حصول هذا الأمر أُشيع أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قد قتل، وهذة مصيبة عظيمة، فهذه المصيبة التي هي في الدين -وهي موت النبي صلى الله عليه وسلم- غطت على ما فات من النصر والغنيمة، فلما تبين أنه حيّ ما اهتموا بفوات الغنيمة، لأن وجود النبي -صلى الله عليه وسلم- وحياته التي هي رأس أمرهم في دينهم كان بالنسبة لهم غنيمة عظيمة في أمر دينهم، فاستغنوا بها عما حصل من فوات شيء في دنياهم.

ولذلك {فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ} [آل عمران :153]، جازاهم الله على الألم والضيق بما فاتهم من النصر والغنيمة بألم وضيق بما شاع من قتل

النبي -صلى الله عليه وسلم-، داواهم رب العالمين بأن شعروا أن هناك مصيبة أعظم من فوات الغنيمة، وهي موت النبي -صلى الله عليه وسلم-، فلما تبين كذب هذه الإشاعة، ذهب الحزن من نفوسهم، يقول -عز وجل- {لِّكَيْلَا تَحْزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ} [آل عمران :153]، أي أنزل بكم هذا الخبر الذي أُشيع من موت النبي -صلى الله عليه وسلم- لتتحرك نفوسكم وتشعروا أن ما فاتكم من النصر والغنيمة لا شيء مقابل سلامة النبي -صلى الله عليه وسلم-، فبعدما علمتم أن النبي -صلى الله عليه وسلم- لم يُقتل هانت عليكم كل مصيبة وألم.

وبهذا غابت هموم الدنيا في غمرات هموم الدين والآخرة، ولذا نحن نؤكد أن هذا النقاش يجعلنا نرتب أولوياتنا، هذه المناقشة ليست تزهيدًا للناس في مصالحهم الدنيوية، ولكن لنبقى شاعرين أن أمر الدنيا قريب، والدنيا تدور على الابتلاء، ومن السهل أن تعوض، كم من رجل تعثر ثم تيسر، وكم من رجل خسر ثم ربح، وفشل ثم نجح، أمر الدنيا يسير، لكن أمر الدين هو الذي إذا ضاع ذهب عن الإنسان ما يتدثر به، وفقد الإنسان بوصلته في الحياة.

من كل شيء إذا ضيعته عوض وما من الله إن ضيعته عوض.

إذن تبيّن لنا هذا الأمر، وتبيّن أنه سيكون تركيزنا على محاولة استدراك ما فاتنا خاصة في أمر ديننا، ولننظر إلى نماذج من أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كيف استدركوا ما فاتهم، ولننظر إلى:

عمر -رضي الله عنه-، وعمر من أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- الأوائل، لكن ليسوا أول من أسلم، بل حصل منه في أول البعثة ما حصل، مثله مثل قومه لما رأوا أن هذا الأمر مختلف عما اعتادوا عليه، فكان منه -رضي الله عنه- أن دخل في الإسلام في قصة معروفة، ولما أسلم في بيت أخته وطلب أن يدلوه على مكان النبي -صلى الله عليه وسلم-، فأُخبر أنه بدار الأرقم مع أصحابه، توجه رضي الله عنه إلى الرسول -صلى الله عليه وسلم- وأعلن إسلامه.

هناك تفاجأ بوجود أخيه زيد بن الخطاب وقد سبقه إلى الإسلام، فقال له: أسبقتني إلى الإسلام؟ فقال زيد -رضي الله عنه-: ما كنت لأستأذنك، لقد كنت جبارًا، فقال عمر -رضي الله عنه-: ولن تجدني في الإسلام خوارًا، ثم قال: "أشهد الله ورسوله، وأشهدكم أني ما وقفت موقفًا آذيت فيه مسلمًا إلا وقفت مثله منافحًا عن الدين وأهله، لأستدرك ما سبقتموني إليه".

سبحان الله! مباشرة أتى شعور الاستدراك، فبدأت رحلة الاستدراك مباشرة.

ولما سأله ابن العباس -رضي الله عنهما-: لأيّ شيء سميت الفاروق؟ قال: قلت حين أسلمت: يا رسول الله ألسنا على الحق إن متنا وإن حيينا، قال: بلى، والذي نفسي بيده إنكم على الحق، وإن متم وإن حييتم، قال: قلت ففيمَ الاختفاء، والذي بعثك بالحق لنخرجن، فخرجنا في صفين حمزة في أحدهما وأنا في الآخر، حتى دخلنا المسجد، قال فنظرت إليّ قريش وإلى حمزة فأصابتهم كآبة لم يصبهم مثلها، فسماني رسول الله -صلى الله عليه وسلم- الفاروق يومئذ. [أخرجه أبو نعيم في (الحلية) (١/ ٤٠)].

سبحان الله! مباشرة بذل جهده في أن يستدرك ما فاته، من أجل أن يغتنم ما بقي من الحياة، فينظر لكل الفرص على أنها تستدرك أن غيره سبقوه في الإسلام، وهذا كان أمرًا ظاهرًا.

صهيب الرومي -رضي الله عنه- يلخص هذا الأثر المبهر الذي سببه إسلام عمر -رضي الله عنه-؛ يقول: "لما أسلم عمر ظهر الإسلام ودُعي إليه علانية، وجلسنا حول البيت حلقًا، وطفنا بالبيت، وانتصفنا ممن غلظ علينا، ورددنا عليه بعض ما يأتي به".

سبحان الله! هذا وعمر يومئذ كان عمره سبع وعشرون سنة فقط، وقد أسلم في السنة السادسة من البعثة، أراد أن يستدرك ما فاته بسبب تأخر إسلامه، حتى فعل أفعالًا جعلته كمن أسلم من أول يوم، فسبحان الله كيف يكون شعور الإنسان بمسؤوليته عن استدراك ما فاته، ويستفيد مما وهبه الله في ذلك؟!

نموذج آخر من نماذج الصحب الكرام وهو نموذج عكرمة بن أبي جهل، وعكرمة أسلم متأخرًا يوم فتح مكة، ونحن سمعنا عن عمر -رضي الله عنه- كيف اشتد في الاستدراك على نفسه وهو قد أسلم أوائل البعثة، وسنرى كيف كان حال عكرمة -رضي الله عنه- وهو قد أسلم بعد الفتح، والله يقول {لا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ} [الحديد:10]، الذي يتابع سيرة عكرمة -رضي الله عنه- يجده منشغلًا طيلة حياته في الإسلام بالاستدراك، باستدراك ما فاته.

وإذا مررنا على سيرة عكرمة -رضي الله عنه- قبل الإسلام نجد أنه كان من رؤوس الكفر، ولما مات أبو جهل ولي مكانه في سيادة بني مخزوم، وبنو مخزوم كانوا من أشد الناس على المسلمين، حتى أنه كما ورد في السير لما كان يوم فتح مكة أمن الرسول

-صلى الله عليه وسلم- الناس إلا أربعة نفر وامرأتين، قال: ((اقْتُلُوهُمْ وَإِنْ وَجَدْتُمُوهُمْ مُتَعَلِّقِينَ بِأَسْتَارِ الْكَعْبَةِ)) [رواه الْبَيْهَقِيُّ]، وعددهم، وبدأ بتسمية عكرمة بن أبي جهل، لأن هؤلاء كانوا أكثر المتمسكين بمحاربة الرسول -صلى الله عليه وسلم-، وقهر المسلمين، لكن زوجته سعت عند النبي -صلى الله عليه وسلم- ليؤمنه فأمنه، فأتت به من اليمن -وكان قد فرّ إليها-.

فلما جاء قام له النبي -صلى الله عليه وسلم- محييًا وقال: مرحبًا بالراكب المهاجر، فقال: ما أقول يا نبي الله؟ عكرمة يسأل النبي -صلى الله عليه وسلم- ما يقول لأجل أن يكون من أهل الإيمان، فقال له النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((تقول أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله))، - قال: ثم ماذا؟ قال: ((تقول أُشهد الله وأُشهد من حضر أني مهاجر ومجاهد))، ففعل، ثم قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((ما أنت سائلي شيئًا أعطيه أحدًا من الناس إلا أعطيتك))، فقال عكرمة: أما إني لا أسألك مالًا، إني أكثر قريش مالًا، ولكني أسألك أن تستغفر لي، ثم قال: يا رسول الله، والله لا أترك مقامًا قمته لأصد به عن سبيل الله، إلا قمت مثله في سبيل الله، ولا أترك نفقة أصد بها عن سبيل الله، إلا أنفقت مثلها في سبيل الله.

فلما كان يوم اليرموك نزل -رضي الله عنه- فترجّل فقاتل قتالًا شديدًا فقُتل، فوُجد به بضع وسبعون من بين طعنة وضربة ورمية -سبحان الله-، وقد ورد أنه لما ترجّل -رضي الله عنه- قال له خالد بن الوليد: "لا تفعل"، فنزوله عن خيله دليل الموت، كأنه يقول تعالوا قاتلوني واقتلوني، فقال له خالد بن الوليد: "لا تفعل، فإن قتلك على المسلمين شديد"، فقال -رضي الله عنه-: "خلي عني يا خالد، فإنه قد كان لك مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- سابقة، وإني وأبي كنا من أشد الناس على رسول الله"، فمشى حتى قُتل -رضي الله عنه-.

سبحان الله! كيف فقهوا هذا الفقه؟ كيف علموا أنه لا بد من استدراك؟ هذا من كمال العقول؛ أن يكون في النفس دافع يدفعها أن تستدرك ما فاتها.

عندما ننظر لقصة عكرمة -رضي الله عنه- وقصة عمر -رضي الله عنه- نفهم كيف وضعوا خطتهم في حياتهم؛ كل موقف وقفته ضد المسلمين سأقف مثله ضد الكفار، وكل مرة أنفقت في سبيل نشر الكفر سأنفق أضعافها في سبيل الله، فهذا كله تعويض لما فاته من الخيرات، وكأنه أسلم وأخذ ينفق في سبيل الله من أول البعثة، فسبحان الله!

بل قد جاء في السير أنه قال: "فوالله لإن طالت بي الحياة لأضاعفن ذلك كله"، وقال أيضًا -وهذا الكلام لعكرمة-: "أما والله يا رسول الله لا أدع نفقة كنت أنفقها في الصد عن سبيل الله إلا أنفقت ضعفها في سبيل الله، ولا قتالًا كنت أقاتل في الصد عن سبيل الله إلا أبليت ضعفه في سبيل الله"، أي سيقاتل ضعف ما كان يقاتل، وينفق ضعف ما كان ينفق، وكما ذكر الشافعي عن عكرمة قال: "قد كان محمود البلاء في الإسلام".

وهؤلاء نموذج لنا نهتم بهم ونفكر في أحوالهم من أجل أن يكون في قلوبنا رغبة في استدراك ما فاتنا، ومعرفة أن هذا منهج؛ أن تستدرك ما فاتك، حتى كان منهجًا للصحب الكرام.

فلنستدرك ما فاتنا في كل شأن من شؤون ديننا، وفي كل شأن يصلح لنا دنيانا، لنقيم ديننا، وقد ابتدأنا في أول النقاش عن هذا الموضوع وفهمنا أن أمر الدنيا ما فات فيه يسير وسهل، أهم شيء أمر ديننا، وهناك من النماذج الكثير، فمن ذلك أنس بن النضر -رضي الله عنه-، ونموذج خالد بن الوليد -رضي الله عنه-، وبإذن الله نتكلم غدًا عن هذه النماذج ونكمل في هذا الموضوع.

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

اللقاء 2

(نماذج من فقه الصحابة في الاستدراك)

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

هذا هو لقاؤنا الثاني في مناقشتنا لموضوع في غاية الأهمية؛ من أجل أن نربي أنفسنا ونأخذ بها إلى الطريق المستقيم، وهو موضوع (فقه الاستدراك)، وهذا الموضوع لأصحاب الهمم العالية الذين يجدون في أنفسهم رغبة في أن يكون ما بقي من حياتهم سببًا لتعويض ما فات منها، وإن شاء الله نكون كلنا ذاك الرجل الذي يرغب في أن يعوض ما فات من حياته، وأن يستدرك ما كان منها لأجل أن يرتفع عند رب العالمين، ويكون كما يحب ربنا ويرضى في مكان المجتهدين، الباذلين، الراغبين في كل ما يعليهم في جنات النعيم.

كنا قد تناقشنا معًا في بعض النماذج من الصحب الكرام، وذكّرنا أنفسنا بالأنموذج الأول في هذا الاستدراك وهو عمر -رضي الله عنه-، وكيف كان تأخره في الإسلام سببًا لقوته أول ما أسلم، حيث أراد أن يستدرك ما فاته بسبب تأخر إسلامه، حتى فعل أفعالًا

جعلته كمن أسلم من أول يوم، وفي السير أنه قد أسلم في السنة السادسة من البعثة، لكن من يسمع سيرة عمر -رضي الله عنه- يشعر كأنه أسلم من أول يوم من بعثة النبي -صلى الله عليه وسلم-.

ورأينا أيضًا وسمعنا الأنموذج الثاني؛ أنموذج عكرمة بن أبي جهل -رضي الله عن عكرمة-، وكيف تأخر إسلامه إلى يوم فتح مكة، وكيف كان حاله عندما هرب، ثم دخل على النبي -صلى الله عليه وسلم- دخول من يريد أن يعوض ما فاته، فقال: "فوالله لإن طالت بي حياة لأضاعفن ذلك كله"، وقال: "أما والله يا رسول الله لا أدع نفقة كنت أنفقها في صد عن سبيل الله إلا أنفقت ضعفها في سبيل الله، ولا قتالًا كنت أقاتل في صد عن سبيل الله إلا أبليت ضعفه في سبيل الله"، وقد مر معنا أن الشافعي قد قال في حق عكرمة -رضي الله عنه- فقد كان محمود البلاء في الإسلام وحصل منه ما وعد به .

واليوم -إن شاء الله- نناقش أنموذجًا ثالثًا من أصحابه الكرام، نرى كيف حالهم في مسألة الاستدراك، وكيف أن الإنسان -بإذن الله- إذا اعتنى بهذا الأمر وفقه بمسألة الاستدراك فإنه يصل إلى الاستدراك.

فهذا أنموذج أنس بن النضر -رضي الله عنه-، وقد حكى لنا ابن أخيه أنس بن مالك -رضي الله عنهم جميعًا- خطة أنس عمه في الاستدراك، فيقول كما عند البخاري في صحيحه: ((غابَ عَمِّي أَنَسُ بنُ النَّضرِ عن قِتالِ بَدرٍ، فقال: يا رَسولَ اللهِ، غِبتُ عن أوَّلِ قِتالٍ قاتَلتَ المُشرِكينَ، لَئِنِ اللهُ أشهَدَني قِتالَ المُشرِكينَ لَيَرَيَنَّ اللهُ ما أصنَعُ!))، وهنا تجدين العزم وليس الثقة في النفس، وإنما العزم على فعل الخير.

((فلَمَّا كان يَومُ أُحُدٍ وانكَشَفَ المُسلِمونَ،)) أي حصلت الهزيمة، وانكشف ظهر أهل الإسلام، واستطاع أهل الشرك أن يهجموا على أهل الإسلام ((قال: اللهُمَّ إنِّي أعتَذِرُ إليكَ ممَّا صَنَعَ هؤلاء -يَعني أصحابَه-،)) لنزولهم لجمع الغنائم ((وأبرَأُ إليكَ ممَّا صَنَعَ هؤلاء -يَعني المُشرِكينَ-، ثُمَّ تَقدَّمَ،)) ذاهبًا إلى أهل الشرك، ليس معه أحد ((فاستَقبَلَه سَعدُ بنُ مُعاذٍ، فقال: يا سَعدُ بنَ مُعاذٍ، الجَنَّةَ ورَبِّ النَّضرِ،)) يعني يشعر أن الجنة أمامه، ثم قال: ((إنِّي أجِدُ ريحَها مِن دونِ أُحُدٍ، قال سَعدٌ: فما استَطَعتُ يا رَسولَ اللهِ ما صَنَعَ،)) سعد بن معاذ مع شجاعته المعروفة ما استطاع أن يفعل مثل ما فعل أنس بن النضر في تقدمه في صفوف العدو وقتاله لهم منفردًا، شخص واحد بلا جيش.

فنسمع أنس بن مالك الذي هو ابن أخ أنس بن النضر يقول: ((قال أَنَسٌ: فوجَدنا به بضعًا وثَمانينَ ضَربةً بالسَّيفِ، أو طَعنةً برُمحٍ، أو رَميةً بسَهمٍ، ووجَدناه قد قُتِلَ وقد مَثَّلَ به المُشرِكونَ، فما عَرَفَه أحَدٌ إلَّا أُختُه ببَنانِه، قال أَنَسٌ: كُنَّا نُرى -أو نَظُنُّ- أنَّ هذه الآيةَ نَزَلَت فيه وفي أشباهِه {مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ} [الأحزاب :23]. إلى آخِرِ الآيةِ)) [أخرجه البخاري في صحيحه].

سنلحظ الاستدراك عند هذا الصحابي -رضي الله عنه- أنس بن النضر، نلحظه عندما قال: "غبت عن أول قتال قاتلت المشركين"، وقع غيابه في بدر، وبدر معلوم وضعها وكيف لم تكن خروجًا للقتال أصلًا، لكن لما تحول الأمر لقتال وهو لم يكن موجودًا فيه، وقع في نفسه أنه فاته خير عظيم.

وهنا ملمح مهم؛ شعورنا بأنه فاتنا خير عظيم ما ننتظر فيه أن يلومنا فلان، أو يخبرنا فلان، أو يعاتبنا فلان، أو حتى ينصحنا فلان وعلان، وإنما لا بد أن يكون في نفوسنا شيء حي من الهمّة، حتى لو فاتنا شيء بذلنا جهودنا في استدراكه.

فهو يقول: "غبت عن أول قتال قاتلت المشركين" هذا دافعه، ثم أقسم أنه لو أشهده الله قتال المشركين، أنه سيُري الله ما يصنع، وهذا كما تبين لنا إنما هو من الهمة العالية، هذه خطته في

الاستدراك؛ يريد أن ينجز في معركة واحدة ما فاته في الأخرى، فيصبح وكأنه مشارك في المعركتين، فيفوز بأجرين.

وهذا كان واضحًا في أدائه، لأن عدد الضربات والطعنات والرميات التي أصابته تبين كم تحامل على نفسه، وكيف شق صفوف المشركين حتى أنهم مثلوا بجثته حنقًا وغيظًا من شدة ما قتل منهم وجرح، وكان هذا الفعل من أنس بن النضر -رضي الله عنه- سبب حثّ المسلمين واستفزازهم لمنازلة المشركين من جديد، فكان كمن استدرك أمورًا عظيمة وسبق غيره في ذلك.

أيضًا من النماذج التي تدلنا على فقه الاستدراك نموذج خالد بن الوليد -رضي الله عنه-، فإنه أسلم بعد البعثة بعشرين عامًا تقريبًا، أسلم في شهر صفر من السنة الثامنة قبل فتح مكة بعدة أشهر، أي كان إسلامه متأخرًا، ومع ذلك تجدين له القدح المعلّى في نصرة الإسلام، وإذا قرأت شيئًا من سيرته -رضي الله عنه- تجدينه متأثرًا أنه تأخر في إعلان الإسلام.

وهذا يظهر جليًا في قصة إسلامه؛ لما قرر الإسلام قصد المدينة وفي الطريق التقى بعمرو بن العاص -رضي الله عنه-، وكان قد ذهب يعلن إسلامه أيضًا، قال عمرو: "فلقيت خالد بن الوليد وذلك قبيل الفتح وهو مقبل من مكة، فقلت أين يا أبا سليمان؟" قال: "والله

لقد استقام المنسم" بمعنى تبين الطريق، والمنسم هذا خُف البعير، كأنه هذا تمثيل أنه بأثر خف البعير يستبين الطريق، أن هذا الطريق المسلوك، "وإن الرجل لنبي" يشير إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-، فقال -لا زال هذا كلام خالد بن الوليد رضي الله عنه-: "أذهب والله فأسلم، فحتى متى؟ قال: قلت: "والله ما جئت إلا لأسلم".

هذا الحوار بين عمرو بن العاص وبين خالد بن الوليد -رضي الله عنهما-، كيف استسلما للحق، وكيف وهما في الطريق ذاهبان التقى أحدهما بالآخر، وبيّن خالد بن الوليد أنه لا فائدة من العناد، وأنه نبيّ ويحث عمرو بن العاص -رضي الله عنه- على أن يسلم، فبيّن له عمرو -رضي الله عنه- أنه ذاهب لذلك.

فانظروا لكلمة خالد -رضي الله عنه-: "فحتى متى" أي حتى متى يكون هذا العناد؟ ومن هنا تشعرين بمشاعره؛ مشاعر الندم على ما فات، ومن هنا بدأت مسيرة الاستدراك، فقد أنقذ جيش المسلمين يوم مؤتة في أفضل انسحاب، وشهد فتح مكة وحنين، وقاد معارك اليمامة ضد أهل الردة، وقضى على مسيلمة الكذاب، وغزا العراق، وفتحه، ثم اخترق الصحراء من العراق إلى الشام في رحلة مليئة بالجراءة والمخاطرة، رحلة عجيبة بخطة بارعة

ووصل في خمس ليالي فقط، وحاصر دمشق وفتحها هو وأبو عبيدة بن الجراح -رضي الله عنهما-، وخاض جملة من المعارك الفاصلة حتى فتح الله على يديه.

نعم أسلم متأخرًا لكنه تقدم تقدمًا باهرًا، إنه -رضي الله عنه- يحوز أجر من أسلم من فارس والروم -أعظم ممالك الدنيا آنذاك-، وما عاش في الإسلام خالد بن الوليد -رضي الله عنه- إلا ثلاثة عشر عامًا، لكنه سطر في صفحات الإسلام سطورًا من نور، فقد قتل جماعة من الأبطال الذين كانوا يعادون الإسلام، ثم مات أخيرًا على فراشه في عام واحد وعشرين من الهجرة، وقد عاش ستين سنة، ولم يبق في جسده قيد شبر إلا وعليه طابع الشهداء.

وهذا الأمر ممكن نتكلم مثله في حق عمرو بن العاص فإنه وإن تأخر إسلامه، فإنه فاتح قطعة من الشام وفلسطين، وصاحب مقامات محمودة، وهو القائل "ما عدل بي رسول الله صلى الله عليه وسلم وبخالد بن الوليد أحدًا من أصحابه في حربه منذ أسلمنا" من قوة شجاعتهم ورغبتهم في استدراك ما فاتهم وقع منهم هذا، حتى أن الرسول -صلى الله عليه وسلم- ما كان يعدل بهم أحدًا.

هم أظهروا للرسول -صلى الله عليه وسلم- رغبتهم القوية في الاستدراك، رغبتهم العظيمة في أن يوصلوا أهل الإسلام إلى المقام

العالي الذي يستحقه أهل الإسلام تكفيرًا عن تأخيرهم لإسلامهم، وعمرو -رضي الله عنه- تولى أمر مصر، وكانت ولاية مصر تعدل الخلافة، حسُنت سيرته -رضي الله عنه- حتى دخل أكثر أهل مصر في دين الإسلام أفواجًا.

من يسمع هذه الأخبار يرى أن أمر استدراك ما فات أمر مشهور ومعروف من أول الإسلام، ما تأخر الصحب الكرام عنه، بل كانوا من أوائل من بذل في سبيل أن يستدرك، رغم أنهم من أوائل من دخل في الإسلام، لكن كلٌ يرى نوع تأخر فيتقدم، فيبذل جهده ليتقدم ويرتفع.

فهذا كله كلما نظرنا إلى هؤلاء الشجعان الذين سبق لهم خطأ أو تقصير أو تأخر، ثم استدركوا على أنفسهم وصاروا أئمة في الناس، ينصرون الله ورسوله، ويقيمون للإسلام صرحًا عظيمًا، عندما ننظر لهؤلاء أكيد أن هذا يستفزنا لنسير مسيرتهم، ونعوض ما فاتنا، ما نكون أصحاب همم دنيئة تحوم في الحشائش وتترك العلو الذي ينتظر كل راغب، ولا زلنا نسمع حديث النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((لا يزال اللهُ يغرسُ في هذا الدِّينِ غَرْسًا يَستعمِلُهم في طاعتِه)) [أخرجه ابن ماجه (8)، وأحمد (17822)] فكما فتح الله

للأولين أبوابًا يستدركون بها نسأله -سبحانه وتعالى- أن يفتح لنا أبوابًا، وفضل الله واسع، والله إذا أعطى أدهش.

فلننطلق ونتحرك ونستدرك ونحن محسنون الظن برب العالمين، وليزيد هذا الأمر في نفوسنا فلنبدأ بأمر يقوّي عزائمنا في الاستدراك؛ وهو تصور الحسرة التي تكون عند أهل الموقف إذا قُضي الأمر، وهذا كما قال عز وجل في سورة مريم: {وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ} [مريم:39]، انتهى كل شيء وليس إلى خروج من سبيل.

فلنتفكر في هذا الموقف، ولنتصور شدة الحسرة التي كلمنا عنها رب العالمين كثيرًا في القرآن، وأصبحت سمتًا عامًا ليوم القيامة، حتى أن رب العالمين في سورة يس ينادي على هذه الحسرة كأن القول فيها أن هذا زمان الحسرة {يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ} [يس: 30] مناداة للحسرة، بمعنى أن هذا الزمن زمن يظهر فيه الحسرات.

فيوم القيامة يوم عظيم {فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} [يس : 54]، يوم يكون فيه أصحاب الجنة {إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ } [يس: 55] بعدما كانوا في الدنيا مجتهدين فهم اليوم في شغل فاكهون، فلما نتفكر في حسرة أهل الموقف حتى أن يوم القيامة سُمي بيوم الحسرة لأنها المسألة

الغالبة البارزة على الوجوه، لما نفكر في أهل النار والعياذ بالله يتحسرون على نبذ الإسلام، أو على التباطؤ في التوبة من العصيان، وأهل الجنة يتحسرون على فوات فرصة الارتقاء في رضوان الله، وفي درجات الجنة مع توفر الفرصة لهم، فغالب الناس يتحسرون وإن اختلفت درجات حسرتهم.

فلنكن متذكرين هذه الحالة الخطيرة؛ حالة الحسرة، ولنكن حريصين على أن نكون بعيدين عن الحسرة يوم الدين بما نستطيع من جهود، وطالما -الحمد لله- نحن ما زلنا في الدنيا والأمر لم ينقضِ بعد، إذن يمكننا أن نستدرك.

أما إذا خرجت الروح وانتقل الإنسان من هذه الدار إلى الدار الآخرة فالأمر قد فات -والله المستعان-، وسيأتي الوقت الذي يصل التحسر إلى منتهاه عندما ينقضي الأمر ويموت الموت، ويدخل أهل الجنة الجنة ويستقرون فيها، وأهل النار النار ويستقرون فيها.

وقد أخرج البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((يُؤْتى بالمَوْتِ كَهَيْئَةِ كَبْشٍ أمْلَحَ، فيُنادِي مُنادٍ: يا أهْلَ الجَنَّةِ، فَيَشْرَئِبُّونَ ويَنْظُرُونَ، فيَقولُ: هلْ تَعْرِفُونَ هذا؟ فيَقولونَ: نَعَمْ، هذا المَوْتُ، وكُلُّهُمْ قدْ رَآهُ، ثُمَّ يُنادِي: يا أهْلَ النّارِ، فَيَشْرَئِبُّونَ ويَنْظُرُونَ، فيَقولُ: هلْ تَعْرِفُونَ

هذا؟ فيَقولونَ: نَعَمْ، هذا المَوْتُ، وكُلُّهُمْ قدْ رَآهُ، فيُذْبَحُ، ثُمَّ يقولُ: يا أهْلَ الجَنَّةِ، خُلُودٌ فلا مَوْتَ، ويا أهْلَ النّارِ، خُلُودٌ فلا مَوْتَ. ثُمَّ قَرَأَ: (وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ)، وهَؤُلاءِ في غَفْلَةٍ أهْلُ الدُّنْيا (وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ) [مريم: ٣٩]. [أخرجه البخاري ومسلم]

وفي رواية: ((فلَو أنَّ أحدًا ماتَ فرَحًا لماتَ أَهْلُ الجنَّةِ، ولَو أنَّ أحدًا ماتَ حُزنًا لماتَ أهلُ النّارِ)) [أخرجه الترمذي] سبحان الله! اللهم اجعلنا وكل أحبتنا من أهل الجنة، فلا زلنا نفكر في هذه الآية {وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ}، ومثلها ما قال عز وجل في سورة الزمر: {أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ} [الزمر: 56]، لكن هل هذا التحسر يجدي؟

لا، ما يجدي، فلا زلنا نقول طالما -من فضل الله ورحمته- لا زلنا في الحياة، ولا زالت الأنفاس تتردد في صدورنا، ولا زلنا قادرين على العمل الصالح، فلنُذهب هذه الحسرة قبل أن تصيبنا، فلنشعر بها شعورًا يجعلنا نتفاداها، لأن الإنسان إذا ما فكر أن هناك أمورًا سيتحسر عليها، فإنه سيهمل هذه الأمور التي تسبب الحسرة،

فلذا سنقف مع آيات الحسرة لنستنهض من أنفسنا الخوف من هذه الحسرة، لأننا إذا ما خفنا من الحسرة لن نبذل جهودنا في استدراك شيء، فنبدأ بآية سورة مريم {وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ}، ونبين أن

الحسرة هي أشد الندم، حتى أن النفس تكاد تتلف على الشيء الذي فات ولا يمكن تداركه.

هذه الحسرة مشاعر ندم عظيم، ولذلك في رواية الترمذي لو قدر أن في الآخرة موت لمات أهل النار من الحسرة، لكن الله -عز وجل- قد ذبح الموت فما يموتون، لكن الحسرة تميتهم آلاف المرات، فهنا يجب أن نشعر بهذا الندم الذي سيكونون فيه وقتما يفوت عليهم الأمر، وقتما فُرغ من الحساب، وفُصل بين أهل الجنة والنار، وصار كل إلى ما صار إليه مخلد فيه، وكانوا في الدنيا وهم في غفلة، أي أنهم اليوم مستغرقون في غفلة عما يفعل بهم في الآخرة، مستغرقون لدرجة أن يوم القيامة ليس على بالهم، فكيف يكون على بالهم أن من أسماء يوم القيامة (يوم الحسرة) {وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ}، فلا بد أن يحصل خوف من هذه الحسرة، لكن السبب الرئيسي:

أنهم {لَا يُؤْمِنُونَ} بمعنى أنهم ينكرون اليوم الآخر، أو {لَا يُؤْمِنُونَ} بمعنى لا يؤمنون إيمانًا صادقًا يتبعه العمل، وهذا يمكن أن يكون أول علاماته الغفلة عن يوم الحسرة، فنحن في هذه الدقائق التي أذن الله فيها أن نلتقي ونذكّر بعضنا بهذا الأمر، نقول لا بد أن نتذكر يوم القيامة، ونتذكر أن الله جعل من أسمائه هذا

الاسم (يوم الحسرة) لأجل أن نتدارك ما نستطيع، لكيلا نكون من المتحسرين.

لماذا أُضيف اليوم إلى الحسرة؟ -كما مر معنا- لكثرة ما يحدث فيه من تحسر المجرمين على ما فرطوا فيه من أسباب النجاة، ذاك اليوم أظهر أمر يكون موجود الحسرة، هو يوم حسرة بالنسبة إليهم، وهو يوم فرح بالنسبة للصالحين.

عند الصالحين يحصل نوع تحسر على أن كان عندهم فرص ولم يستدركوها -ويأتينا الكلام عن هذا-، لكن الحسرة العظيمة لمن كان غافلًا تمامًا، وتراكمت عليه الأمور، وتراكمت عليه الذنوب، وكان غافلًا عنها، ذاهلًا عنها، فيقضى الأمر وهو لا زال في غفلته، فتكون حسرة عظيمة لا يقدر قدرها إلا الله.

النفوس كأنها في ذاك اليوم -نفوس هؤلاء أهل الكفر وأهل الذنوب وأهل المعاصي وكل من كان غافلًا عن ذاك اليوم- صفتها الظاهرة الحسرة، فهذه الغفلة عن يوم الحسرة سبب لحسرة عظيمة -نعوذ بالله منها-.

مثل هذا أيضًا -من الآيات التي فيها توجع وتألم من الحسرة- آية سورة الزمر {أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ} [الزمر: 56]، كيف الإنسان في ذاك اليوم

يحصل منه تذكر لتفريطه، فيقول {يَا حَسْرَتَا} يتندم غاية الندم، وحُقّ له أن يتندم، لأن التفريط في أمر كان بإمكان الإنسان أن يفعله ويكون هذا الفعل سببًا لنجاته التفريط في ذلك لا بد أن يكون سببًا للحسرة.

{أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ} الإنسان عند وقوع الخسران يكون له أقوال وأحوال، لكن لو تخيلها قبل هجوم الموقف لحسب حسابه فباعد أسبابه، وكان اجتهد من أجل ألا يقع عليه الحسرة، فهذا ينادي في ذاك اليوم "يا حسرتا" فيكون في غاية الغم على ما فات والتندم عليه.

فكأنه يقول: يا طول غمي -نعوذ بالله- لإهمالي وغفلتي عما فيه صلاحي، يا طول غمي بسبب بعد النجاة عني، فلا وصول لي إلى النجاة، فلا وصول لي للأسباب لأستدرك ما فات، فلا وصول لي للنجاة، وهذا عندما تنكشف الأحوال وتأتي الأهوال -والله المستعان-، يشعر في ذاك الوقت أنه فرط، {عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ} -يعني ضيعت- فانفرط مني نظامي وتعذر انضمامي والتئامي على ما يجب أن أهتم به، {مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ}.

-سبحان الله- الإنسان كانت الأبواب مشرعة له، والأمور قريبة منه فيقصر في جانب أمر الله ونهيه، ولا يتبع أحسن ما أنزل إليه،

بل يستبعد هذه الأمور، ويراها كأنها لا تصيبه ولا تلحقه، فيستمر في غفلته، ويأتيه الذكر يوم لا ينفع فيه التذكر ولا تنفع فيه الندامة، وكان في الدنيا وصفه {وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ}، سبحان الله!

ياله من وصف خطير، فبعد ما ينادي على الحسرات، كأنه يقول: يا حسرتا هذا وقتك فاحضري، يبين السبب كيف في الدنيا أضاع نفسه بكونه كان من الساخرين ، كان يسخر بالحقائق ففرط في جنب الله تفريط الساخر الذي ينظر إلى الحقائق ويرى أنها بعيدة ولا تكون، وقد يرى نفسه أنه من المستثنين من هذه الحقيقة، أنها لا تقع عليه، فيتعامل مع الحقائق والأمور العظام بطريقة الاستهزاء، بطريقة الإهمال وكأن الشأن ليس شأنه، وكأنه لن يحصل، أو كأنه ما وعد الله بحصوله، كأنه ليس شيئًا في حقه، وإنما في حق غيره، بل حتى الموت من كثرة غفلة الإنسان عن الحقائق يظن أنه يصيب غيره ولا يصيبه، ويسمع من هو في مثل حاله ومثل عمره وربما كثير من المواصفات تشابهه وأنه مات فجأة، لكنه ينظر للأمر على أنه لا يصيبه، وهذه قمة الغفلة -والله المستعان-.

في تلك اللحظات يمر شريط الحياة أمام عين الإنسان، فيتحسر الإنسان على فوات الأعمار، على ضياع الليل والنهار، يتحسر

على عمره الذي مضى، فيقول: يا حسرتا على ثلاثين عامًا، أو أربعين، أو خمسين، أو ستين، ...، والزمن قد مضى، والعمر قد انقضى ولم أحصّل فيه ما ألقى به رب العالمين، بل يتذكر الإنسان في حسراته -نسأل الله أن يعيذنا منها- تفاصيل ضيع فيها نفسه، فيتحسر على سهر ليالي بلا طاعة، بل ربما في معصية، ونهار انقضى في غفلة، بل ربما في التخطيط لذنب، يتحسر الإنسان على صلاة أضاعها، وأوراد نسيها، ومقامات رفيعة كانت قريبة لكنه لم يعتنِ بها ، يتحسر الإنسان على حرمات انتهكها، وأعراض تعرض لها، وأوامر تركها، ونواهي اقتحمها، وخطايا تلذذ بها وضيع بها ما وراءها، يتحسر الإنسان على صدقات كان سهلًا عليه أن يقوم بها ويتخذ بها إلى ذي العرش سبيلًا، لكنه بخل بها، يتحسر الإنسان على قدرات ومهارات منحه الله إياها كان يمكن أن ينفع بها المسلمين وتكون بابًا للأجر العظيم، لكن انشغل بنفسه ولم ينفع نفسه بنفع المسلمين، ويكون هذا أحيانًا من فروض الكفايات ولا أحد غيره يقوم مقامه، لكن يقدم شهوته على هذا، فيُحاسب بالتأكيد عن ذلك، وهذا الكلام يخاطب به أصحاب المواهب والقدرات الذين بقدرتهم أن ينفعوا المسلمين ويقوموا بفروض الكفايات،

يتحسر الإنسان على لسان ما رُطب بذكر الله، ولا انشغل بتلاوة كتابه، يتحسر الإنسان على انشغاله في الدنيا، وفي الهموم والأحزان، فيشتغل بها عن أن يجعل له رصيدًا عند رب العالمين.

أمور كثيرة الإنسان يتحسر عليها، وتمر أمامه، فأيّ حسرة هذه التي سيجدها الإنسان الذي كان غافلًا عن الله، وعن كتاب الله، كان غافلًا عن الأوقات الفاضلة، كان غافلًا عن الأذكار، كان غافلًا عن المواسم الفاضلة؛ كرمضان والعشر الأوائل من ذي الحجة، أو الأماكن الفاضلة.

لا بد أن يتهيج في نفوسنا الخوف من الحسرة، لا بد أن نشعر أن كل هذا الذي يفوتنا إن لم نبذل جهودنا في استدراكه فإنه ينقلب في ذاك اليوم العظيم إلى حسرات عظيمة، ورب العالمين فتح أبوابه للتائبين، وجعل مجالات عظيمة للاستدراك، ومن أكثر الأمور اختصارًا في مسألة الاستدراك أننا نبتدئ من هذه اللحظة في التوبة عن كل الأبواب التي كانت مفتوحة لنتقرب إلى الله ونحن ضيعناها، وننظر في نفسنا أيّ أبواب الخير أقرب إلينا، فنتداركها أسرع ما يكون.

إذن نفكر في حسرة أهل الحسرة يوم الحسرة، ونخاف من ذلك، يوم القيامة يوم الحسرة، لا ننسى هذا الاسم ليوم القيامة، نفكر في

ذلك، ونخاف من ذلك، ونتوب عن كل باب كان مفتوحًا للقرب من رب العالمين فأهملناه، ((نعمتانِ مغبونٌ فيهما كثيرٌ منَ النَّاسِ: الصِّحَّةُ والفراغُ)) [أخرجه البخاري في صحيحه].

وبعد التوبة نرى أقرب الأبواب التي يمكن أن نتدارك بها ما فاتنا، حتى لقاء آخر -بإذن الله- حول هذا الموضوع، ونرى كيف أن الله عز وجل- جعل الاستدراك في شرعه أمرًا تام الوضوح، وكيف فتح لنا أبوابًا -سبحانه وتعالى- لنتدارك ما فاتنا.

أسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يعيننا على أن نتدارك ما فاتنا، وأن يقبل منا توباتنا، اللهم آمين.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

(مشروعية الاستدراك في العمل الصالح والتوبة)

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، نحمد الله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا، ونسأله بمنه وكرمه أن يجعلنا من أهل الفوز، الفوز الحقيقي برضاه وبجنات النعيم.

ونسأله سبحانه أن يحفظنا من الحسرات في الدنيا والآخرة، فإن أعظم الآلام التي تمر على النفس هو ألم الحسرة، وأعظم الحسرات التي لا استدراك فيها، وهذا -نسأل الله أنه يعيذنا ويحفظنا- لا يكون إلا لمن ضاعت عليه أخراه، وهناك تقول النفس {أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ} [الزمر:56]، نعوذ بالله أن نكون من أهل الحسرات، ونسأله -سبحانه وتعالى- أن نكون من أهل الاستدراك الذين يستدركون ما فاتهم، والإنسان من طبيعته أنه يفوت عليه، ومن رحمة رب العالمين أن جعل في نفسه الرغبة والقدرة على الاستدراك، هذه رحمة رب العالمين.

دائمًا نحاول أن نذكر أنفسنا بهذه الحال التي يكون فيها الخاسرون، كيف تنزل عليهم حسرات، خصوصًا عندما يرون أن قومًا كانوا يعيشون معهم -وربما لم يقَدروهم- يؤتى لهم بالركائب والنجائب عند القبور ليكونوا من وفد الرحمن الذين يخفف عنهم عناء يوم القيامة دون أن يكون هو معهم، وحسرات عظيمة حين يرى صاحبه فلان يفوز بعليين، وذاك يفوز بالفردوس الأعلى، وهو -الإنسان- ما زال في معصيته، ما زال يُحاسب على عمله.

والله إنها من الحسرات العظيمة، نعوذ بالله من هذه الحسرات، ونبقى سائلين الله راجين الله خائفين من الله من أجل أن ينفعنا هذا كله وقتما يفوز الأبرار، فلا نكون من الخائبين وقتما يُحضر الله -عز وجل- المتقين الصالحين فيقدمهم، نعوذ بالله أن نكون من المتأخرين، فلذا إثارة أنفسنا تجاه هذه الحسرات، وتجاه هذا الخوف من الأمور المهمة، من الإثارات المهمة في أنفسنا من أجل أن نستدرك اليوم على أنفسنا قبل أن ينقضي الأمر وتفوت الفرصة، ولا بد أن نبقى نعاتب أنفسنا عتاب من يريد العمل، وليس عتاب من يعذب نفسه ولا يتقدم للعمل -والله المستعان-.

فهذا العتاب يجعلنا نقول ما الذي يرضينا في حياة الكسل ونحن نعلم المصير، تصوروا أن أعظم ما يتمناه في ذاك الوقت أهل

الكفر -والعياذ بالله- هو أن يهلكوا، حتى أنهم يدعون على أنفسهم ثبورًا يقولون {يا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ} [الزخرف :77]، فلنعتق أنفسنا اليوم اليوم، واليوم فلنبذل جهودنا أن نتوب ونرضي ربنا، علينا أن نحرك في نفوسنا الإيمان باليوم الآخر.

ليكون هناك استدراك حقيقي لا بد أن يكون هناك جرعة إيمان تربوية عما سيكون يوم القيامة، جرعة إيمانية في الإيمان بيوم القيامة، ومواقفه، وأحداثه، وهذا أمارة عقل الإنسان، فإذا كنا من المقصرين، كلما فكرنا في اليوم الآخر تبنا وأقبلنا على رب العالمين، وإن كنا من المقبلين ثبتنا وكثرنا من ذلك.

وقد ذكر ابن الجوزي في كتاب (صيد الفوائد) كلامًا يحرك الفؤاد الحقيقة لمن تدبره، يقول: "تأملت في الخلق وإذا هم في حالة عجيبة يكاد يُقطع معها بفساد العقل، وذلك أن الإنسان يسمع المواعظ، وتُذكر له الآخرة، فيعلم صدق القائل، فيبكي وينزعج على تفريطه، ويعزم على الاستدراك، ثم يتراخى عمله بمقتضى ما عزم عليه، فإذا قيل له: أتشك فيما وُعدت به -يعني يوم القيامة-؟ قال: لا والله، فيقال له: فاعمل، فينوي ذلك ثم يتوقف عن العمل".

وهذه حالنا -الله يغفر لنا-، حيث نتأثر تأثرًا عظيمًا بمواعظ الإيمان، وعقيدتنا في اليوم الآخر صحيحة، وإذا أتى مذكر تذكرنا

-الحمد لله- وعزمنا على العمل، لكن أقل شيء يفك هذا العزم، فلنتذكر جميعًا {وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ} [مريم: 39] نعوذ بالله من هذه الغفلة، فلنستدرك ولنقبل على ربنا، ولنبكي على خطيئتنا قبل أن تنتهي الأعمال، ويتعذر الاستدراك.

الآن السؤال: هل كلمة (فقه الاستدراك) لها أصل شرعي؟ وهل اعتنت الشريعة بذلك؟ هل رب العالمين حثنا على ذلك؟

الجواب : نعم، من المؤكد أن رب العالمين حثنا على ذلك، و إلا لم يكن مشروعًا الكلام في ذلك، ولنأخذ ثلاثة أدلة تؤكد لنا على أن فقة الاستدراك من فقة الإنسان بالدين، ونبدأ بآية الفرقان رقم اثنين وستين {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا} هذه الآية العظيمة أولًا هي في سورة الفرقان التي تفرق بين الحق والباطل، وتخبرنا بأخبار عظيمة؛ التفريق بين الحق والباطل كان ببيان الحق وإبطال الباطل، وبيان استحقاقه سبحانه وتعالى للعبادة، والإقبال عليه، والاهتمام بشأن آخرتنا، بيان سبب وجودنا في الحياة.

من ذلك أن رب العالمين قال في هذه الآية {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً}، هذه من الأدلة التي تدلك على رب العالمين، وعلى عظمته التي بدأت السورة بها، وأيضًا في آخر السورة أتى نفس

المعنى -عظمة الله-، ففي آخر السورة: تبارك الذي فعل هذه الأفعال {تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا (61) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً} خلفة لمن؟ {لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا} خلفة بمعنى يعقب كل منهما الثاني، يخلف الأول الثاني يذهب هذا فيخلفه هذا، وهكذا أبدًا ما كانت الحياة، ثم إذا انفرط عقد العالم ذهب أول ما ذهب هذا الأمر، وكان اليوم الأخير؛ يوم القيامة.

الشاهد في الآية في سبب هذا، يعني جعل الله الليل والنهار يتعاقبان {لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا}، أي لمن أراد أن يتذكر بهما، ويعتبر ويستدل بهما على عظمة الله، ويشكر الله على ذلك، وله ورد من الليل أو النهار.

فلنقرأ كلام الشيخ السعدي في هذه الآية -آية رقم اثنين وستين في سورة الفرقان-: "أي: لمن أراد أن يتذكر بهما ويعتبر ويستدل بهما على كثير من المطالب الإلهية ويشكر الله على ذلك، ولمن أراد أن يذكر الله ويشكره وله ورد من الليل أو النهار، فمن فاته ورده من أحدهما أدركه في الآخر، وأيضًا فإن القلوب تتقلب وتنتقل في ساعات الليل والنهار فيحدث لها النشاط والكسل والذكر والغفلة والقبض والبسط والإقبال والإعراض، فجعل الله الليل والنهار

يتوالى على العباد ويتكرران ليحدث لهم الذكر والنشاط والشكر لله في وقت آخر،" أي يستدركون في وقت آخر، هذا الوقت أنت كسلان فيه، إذن هناك وقت آخر تستدرك فيه، قال أيضًا:

"ولأن أوراد العبادات تتكرر بتكرر الليل والنهار، فكلما تكررت الأوقات أحدث للعبد همة غير همته التي كسلت في الوقت المتقدم فزاد في تذكرها وشكرها،" ثم يختم الكلام يقول: "فوظائف الطاعات بمنزلة سقي الإيمان الذي يمده، فلولا ذلك لذوَى غرس الإيمان ويبس. فلله أتم حمد وأكمله على ذلك."

الحمد لله، هنا الشيخ يشير إلى أن هذه الآية العظيمة دلتنا على أمر مهم، في آخر كلامه أن الإيمان الذي في قلوبنا يحتاج إلى سقي؛ لأنه شجرة طيبة تحتاج إلى سقي، كيف تسقي إيمانك؟ هذا السقي يكون بالوظائف اليومية التي تكون في أوقاتك التي تعبد الله بها، لكن هذه الوظائف قد يفوتني شيء منها، نعم، فجعل الله الليل والنهار لأجل أن تستدرك ما فاتك في الوقت السابق، فتسقي إيمانك ولا تذبل شجرة الإيمان في قلبك.

وقد ورد في تفسير ابن كثير عن الحسن: أَنَّ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ أَطَالَ صَلَاةَ الضُّحَى، فَقِيلَ لَهُ: صَنَعْتَ الْيَوْمَ شَيْئًا لَمْ تَكُنْ تَصْنَعُهُ؟ فَقَالَ: إِنَّهُ بَقِيَ عَلَيَّ مِنْ وِرْدِي شَيْءٌ، فَأَحْبَبْتُ أَنْ أُتِمَّهُ -أَوْ قَالَ:

أَقْضِيهِ -وَتَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً [لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا).

يعني بقي له ورد من اليلة السابقة ما قرأه، فأطال في صلاة الضحى فأكمل ورده الذي لم يقرأه أمس، فمعنى ذلك أننا نبذل جهدنا في الاستفادة من وقت نشاطنا، لأن رب العالمين جعل هذه الليالي والأيام تمر علينا وتتغير أحوالنا فيها لأجل أن ننشط، فنستدرك ما فاتنا، ويكون هذا الأمر -أمر الاستدراك- على بالنا، فإذا وجدت نفسك نشيطة على الخير في نهارك كان هذا بشارة لك، اشكري الله على توفيقه وتسديده، واستفيدي من النهار، وإن وجدت نفسك لست نشيطة في النهار افعلي الواجب عليك، وابذلي جهدك، لكن الليل خلفة النهار، فالذي قصرتِ فيه في النهار حين يأتي الليل سددي ما قصرتِ، بمعنى يكون عندك عزيمة على استدراك ما سبق التفريط فيه، فلا أبتدئ بالتفريط لكن أحيانًا يضعف البدن، أو ينشغل الإنسان فيستدرك في الآتي، تعزمين على تلافي ما سبق من التفريط، وتشتغلين بتدارك التقصير.

ودائمًا علينا أن نستحضر في قلوبنا أن حياتنا كلها نهار العمر، نهار العمر هذا له آخر تغرب فيه شمس الحياة، فلا يكون بعد لها طلوع، وعند ذلك يغلق باب التدارك والإعذار، العمر ليس إلا أيامًا فيها فرص، النهار والليل يخلف بعضه بعضًا، والنشاط والكسل يتناوبان، والانشغال والفراغ يتصارعان، والإنسان العاقل هو الذي

علم أن شمس عمره تغيب، فلا يعود بعدها أبدًا إلى العمل، فالله جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورًا.

ولننتبه لهذا المعنى، ولنجعل لياليا وأيامنا فرصًا للتفكر في حالنا، فنستدل بذلك على توحيد ربنا، وعلى عظمة قدرته -سبحانه وتعالى-، ولنشكر رب العالمين شكرًا صادقًا يدل على إيماننا، شكر من يعلم أن ربه قد فتح له باب الاستدراك، فهذه الآية -آية الفرقان- فهمنا أن الله -عز وجل- جعل الليل والنهار يخلف بعضه بعضًا من أجل أن نتذكر ونشكر، ومن ذلك ما تأوله عمر -رضي الله عنه- في الحديث الذي مضى معنا.

فإذن نفهم من ذلك أن الله -عز وجل- جعل الليل والنهار خلفة ليتدارك الناس ما فاتهم في الليل بسبب النوم أو التعب، فيقضيه في النهار، أو ما شغله عنه شواغل العمل في النهار، فيقضيه بالليل عند التفرغ، وهذا الاستدراك دليل على حياة قلب الإنسان، وعلى معرفته حقيقة وجوده، وعلى معرفته لماذا هو في الحياة، وأنه هنا يجمع من الأعمال الخالصة، والرغبة الصادقة في التقرب إلى رب العالمين، فيجعل الحياة مكانًا للذكر والشكر، ويجعل من الليل والنهار مكانًا للعمل ولاستدراك الفائت.

أيضًا من النصوص الدالة أن الشريعة حثتنا على الاستدراك واعتنت به؛ ما أخرج مسلم في صحيحه عن أبي هريرة -رضي الله عنه- ((أَنَّ فُقَرَاءَ المُهاجِرِينَ أَتَوْا رَسولَ اللهِ صَلَّى

اللَّهُ عليه وسلَّمَ، فَقالوا: ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بالدَّرَجاتِ العُلى، والنَّعِيمِ المُقِيمِ، فَقالَ: وَما ذاكَ؟ قالوا: يُصَلُّونَ كما نُصَلِّي، وَيَصُومُونَ كما نَصُومُ، وَيَتَصَدَّقُونَ وَلا نَتَصَدَّقُ، وَيُعْتِقُونَ وَلا نُعْتِقُ، فَقالَ رَسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ: أَفلا أُعَلِّمُكُمْ شيئًا تُدْرِكُونَ به مَن سَبَقَكُمْ وَتَسْبِقُونَ به مَن بَعْدَكُمْ؟ وَلا يَكونُ أَحَدٌ أَفْضَلَ مِنكُم إلّا مَن صَنَعَ مِثْلَ ما صَنَعْتُمْ قالوا: بَلى، يا رَسولَ اللهِ قالَ: تُسَبِّحُونَ، وَتُكَبِّرُونَ، وَتَحْمَدُونَ، دُبُرَ كُلِّ صَلاةٍ ثَلاثًا وَثَلاثِينَ مَرَّةً)).

فالنص واضح أن النبي -صلى الله عليه وسلم- يرشد الأصحاب الكرام كيف يدركون من سبقهم، ويعوضون ما فاتهم، ولو كان العجز عن اللحاق أمر مقرر، ولا أحد يستطيع أن يسبق أحد، ما كان أرشدهم إلى ذلك.

ومن أهم الأمور هنا أن نعرف أن الاستدراك يبدأ بصدق نية في أن نستدرك، يعني يكون في قلبك صدق نية أن تستدرك ما فاتك، انظر إلى هؤلاء الكرام أصلًا أتوا يتسابقون على شأن الآخرة، أي شاغلهم شأن الآخرة، واضح في نفوسهم محبة أن يكونوا متقدمين في الآخرة، فهُم ما أتوا واشتكوا أن هؤلاء أحسن منا في دنياهم، أعطنا من الزكاة، أعطنا من بيت المال، أعطنا كذا ...، كلا،

هؤلاء يهمهم أن يسبقوا في الآخرة، يريدون فرصًا متساوية، هذا الذي في بالهم، نريد فرصًا متساوية لكي نتسابق ونصل، ونريد أن نسبق، نحن مقررون أن نسبق لا نريد أن يسبقنا أحد بأمر خارج عن يدنا،

-سبحان الله- فهنا النبي -صلى الله عليه وسلم- بيّن لهم وجبر خاطرهم بأنه سيعلمهم شيئًا، قال لهم النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((ألا أُعَلِّمُكُمْ شيئًا تُدْرِكُونَ بِهِ مَنْ سَبَقَكُمْ، وتسبِقونَ بِهِ مَنْ بعدَكُمْ)) [أخرجه مسلم في صحيحه]، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- أخبرهم كيف يدركون من سبقهم.

الأمر الثالث أيضًا الذي نستدل به على أن فقه الاستدراك أمر مهم؛ عامة الآيات والأحاديث الداعية للتوبة، لأن التوبة في حقيقتها هي عملية استدراك حقيقية، لأن التوبة كما تعلمون لها شروط، لو نظرت إلى شروط التوبة تجدها توزعت على الأزمنة الثلاثة:

الندم على الماضي.

الإقلاع في الحاضر.

العزم على ألا يعود في المستقبل.

فما أجمل هذا التنظيم البديع لحياة الإنسان وحياة نفسه! التوبة من أعظم الأمور التي تدلنا على أن هناك فرصًا، التوبة الصحيحة

المقترنة بشروطها تؤذن بأن الإنسان استفتح صفحة جديدة في حياته؛ لأن التائب من الذنب المحقق للشروط: ((التائبُ منَ الذنبِ كمنْ لا ذنبَ لهُ)) [أخرجه ابن ماجه]، ويتوب الله على من تاب كما في الحديث.

فبهذا يحصل أعظم الاستدراك، ما دامت الشريعة شرعت التوبة وجعلتها بابًا للاستدراك، إذن أنت بإمكانك، هذا يدل على أن الاستدراك أمر مطلوب، وهذا من رحمة الله بعباده، فتصور لو أن الاستدراك غير موجود -نعوذ بالله من هذا الشقاء-، تصور كافرًا وباب التوبة غير مشرع، ودخوله في الإسلام لا يمحو ما قبله، ما يستطيع أن يستدرك شيئًا، فهذا يكون مانعًا له من الدخول.

أو نفس الأمر؛ انظر للعاصي لو أن العاصي قيل له أن توبتك تردك إلى الصراط لكن ما تستدرك ما فاتك، أيضًا هذا من الشاق على النفس، فمن رحمة الله بعباده أن شرع التوبة، وأن طيّب نفس التائب وجبر خاطره، وخصوصًا أولئك القوم الذين صدقوا في التوبة، وحققوا شروطها، ووصلوا بحالهم أنهم تقطعت قلوبهم من الألم على ما فات من أعمارهم، وبلغ بهم الحياء مبلغه في أن يلقون رب العالمين وهم على هذه الحال من الذنوب، يعني أصابهم

الحياء، تقطعت قلوبهم على ما فات، فهؤلاء من عظيم فضل الله أنه يحول سيئاتهم التي اقترفوها سابقًا إلى حسنات.

وهذة الآية الحقيقة تستوجب شكرًا خاصًا منا، فيقول عز وجل في سورة الفرقان: {إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا} [الفرقان: 70].

إذن هذا الدليل الثالث الذي يدلنا على أن الشريعة تحب منك أن تستدرك، من ذلك أمر التوبة، فالأمر بالتوبة هو أمر بالاستدراك، ولذلك ينبغي أن نستدرك سريعًا دون تأجيل، لأن الله مدح التائب عن قريب {إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا} [النساء: ١٧].

إذن تبيّن لنا أن نفس التوبة إرادة للاستدراك، إرادة للتدارك، فماذا ينبعث في داخلك لما تريد أن تتوب؟ تريد أن تتدارك ما فاتك، فيقال لك لأجل أن تتدارك ما فاتك اترك هذا المحظور، واندم على ما مضى، واعزم على الطاعات في المستقبل.

فالتوبة لخصت لنا موضوع التدارك، وهنا نؤكد أن عدونا الشيطان يأتي لنا في وقت التقصير ويستغله أسوأ استغلال، يستغل

حالة الضعف؛ حين يكثر تقصير الإنسان، وفوات الفرص عليه، ويجعله يشعر أن الأمر فائت، وأنه لا طريق للاستدراك، أمام هذا الأمر دائمًا نذكر أنفسنا: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} [الزمر: 53].

هذا وعد من الله نحارب به تثبيط الشيطان لمسألة التوبة خاصة، ولمسألة الاستدراك عامة، هذا الأمر يجب أن يكون على بالنا دائمًا؛ أننا يمكن أن نستدرك، وأن من عزم على الاستدراك يجب أن يبذل، إذا أخطأنا أو قصرنا ما يأتينا إحباط، وإنما نعزم على الاستدراك ونمضي في العمل، وسأضرب مثالًا لنتصور كيف يحاول الشيطان أن يستغل هذا الأمر فينا، وكيف الشريعة أرشدتنا.

بذلك نكون ذكرنا الثلاثة أدلة التي تدل على أن الاستدراك أمر شرعيّ:

أولًا: آية الفرقان {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا}

ثانيًا: الحديث الذي أخرجه مسلم، وهو حديث ((ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ مِنَ الأَمْوالِ بالدَّرَجاتِ العُلا ...)) [متفق عليه].

ثالثًا: شريعة التوبة نفسها.

هنا نريد أن نؤكد أن الاستدراك أمر أرشدت إليه الشريعة في تفاصيلها، وأن الشيطان يبذل جهده في منعنا من ذلك، فمن ذلك أن الشريعة خوفتنا من الرياء، لكن أرشدنا النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى دعاء نُذهب به ما يقع في قلوبنا من هذا الرياء.

فالذي يخشى على نفسه الرياء، أي هو الآن وقع في الرياء -بمعنى أن الشيطان أخذه-، هل عندما يخرج الشيطان يبطل عمله في هذا؟ طبعًا هذا أمر له أحكامه؛ إن كان الرياء في عمل متصل بعضه ببعضه، وجاء في لحظة، أو استمر معه، أو كان هو بداية العمل، لكن لك أن تتصور أن هذا طرأ، فالشريعة أمرتنا بهذا الدعاء المشهور:

((اللهمَّ إنِّي أعوذُ بك أن أُشْرِكَ بك شيئًا وأنا أعلَمُه وأستغفِرُك لِما لا أعلَمُ)) [أخرجه الإمام أحمد (١٩٦٠٦)].

فهذا نقوله في كل وقت، وحين يوجد شعور أن الرياء دخل أو أقبل على الإنسان في عمله فليكن منه هذا الدعاء، وهذا المعنى فهمه شداد بن أوس -رضي الله عنه- لما حضرته الوفاة، وطلبوا منه وصية مودع، قال شداد -رضي الله عنه-: " إنَّ أخوفَ ما أخافُ عليكُمُ الرِّياءُ" [أخرجه أبو نعيم في الحلية ١/ ٢٦٨]، وهذا يعني أن هذه الوصية أمر مهم لأنه يفسد العمل، فما الحل؟ الحل

-كما تبين- أن نتوب ونستغفر، وندعو: "اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك شيئًا وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم".

وهذا الاستدراك إنما هو مبني على تصور خطر هذا العمل، فكل مرة ندخل في أثم أو ذنب، لا نتركه ونقول أنا لا أستطيع أن أدافعه، مثلًا الرياء دائمًا يأتي الشيطان يقول: إن هذا أمر لا تستطيع أن تدافعه، فتتجاهله، نقول: لا، هذا ليس الصحيح أن تتجاهل ما يمر عليك من مثل هذه الأخطار، الصحيح أنك تعزم وتستدرك.

نفترض مثلًا أن إنسانًا تورط بسلب أموال؛ يعني سرقها من أحد ولا يستطيع الآن أن يردها له، نقول إذا استطاع أن يردها ولو بعد كل هذه السنوات فليردها، يتوب ويرد حقوق الناس، فإن لم يستطع أن يردها بتصريح يردها من غير علم، حتى إن كان لا يدري أين صاحب المال، فليستعد للآخرة، وليتصدق بها، وليتصدق بأكثر منها كلما استطاع، حتى إذا جاء يوم القيامة ما يُؤخذ من حسناته، وإنما يُقال أنا تبت وهذا حقك خذه، فيكون عنده فقه أنه كيف يستدرك ما فاته.

أحيانًا مثلًا تأتينا مسألة الغيبة، والغيبة مثال جيد، الغيبة هذا تشهير بالمسلمين، حتى لو كان فيهم العيوب -لو كان فيهم العيوب هذه

غيبة، أما لو ما فيهم العيوب فهذا بهتان-، الشاهد أن الإنسان بعد فترة يفيق من فعله هذا، فكيف يستدرك؟ يحاول أن يرجع إلى الناس الذين تكلم عندهم بسوء عن هذا الإنسان، ويقول يا جماعة أنا رجعت في كلامي وهذا موضوع ضروري أبلغكم به؛ أن هذا الرجل بريء مما قلت، لقد كنت غضبانًا، أو فهمت الموقف بطريقة خاطئة، ... إلى أخره، أي نركز على حسناته، ونترك الكلام عن زلاته، نستغفر له، وندعو له.

أحيانًا لا يكون في استطاعتك أن تُري الناس، مثلًا تكوني أنت موظفة في مكان أو كان لكِ جيران معينين في حي، ثم افترقنا قبلما نتسامح، قبلما نظهر الاعتذار من أخطائنا وغيبتنا، أو نبدي الاعتذار عند من اغتبناه عندهم، فلا يوجد فرصة للكلام معه، أو الكلام عنه، إذن نكثر من الاستغفار والدعاء له، والصدقة عنه، فإذا جاء يوم القيامة يجد في صحيفته هذا الاستغفار، فيكون هذا هو حقه دون أن يأخذ من حقي شيئًا، قصدت بهذا أن تتصوروا أن الإنسان يمكن أن يستدرك فعليًا، وسيأتينا -إن شاء الله- أيضًا الاستدراك في جانب العبادة.

هذا سأقول عنه موجز فيما بقي من الوقت، وغدًا -إن شاء الله- نزيد الكلام عن الاستدراك في جانب العبادة، الإنسان كلما عرف

حقيقة وجوده في الحياة زاد في طاعة الله، وتعود على فعل شيء من العبادات، ثم يفوته، وخصوصًا الفوت يحصل بسبب اختلاف في صحته، أو بسبب اختلاف في ظروفه، وهذا كله من الأمور التي يُمتحن بها الإنسان؛ صحته، وأوضاعه العامة، ومسؤولياته، ... كلها من الأمور التي يُمتحن بها الإنسان، فكيف نستدرك ما فاتنا من الطاعات؟

ومن أهم الطاعات التي نتكلم عنها بالإضافة لأركان الإسلام -الصلاة والصيام والصدقة والحج- نتكلم عن ورد الإنسان في القرآن، فنبدأ اليوم بالكلام عن الورد؛ كيف نستدرك وردنا القرآني الذي هو خاص بالليل؟

مر معنا فعل عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- الذي تأول فيه آية سورة الفرقان، الآن سيتبين لك كيف هو تأول حديث الرسول صلى الله عليه وسلم: عَنْ عُمَرَ بنِ الخطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْه قَالَ: قَالَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّم: ((مَنْ نَامَ عَنْ حِزْبِه مَنَ اللَّيلِ، أو عَنْ شَيءٍ مِنْه فَقَرَأَه ما بين صَلاةِ الفجرِ وصلاةِ الظهرِ، كُتِبَ له كأنَّما قَرأَه مَنَ اللَّيلِ)) [أخرجه مسلم في صحيحه].

أولًا لاحظوا أن راوي هذا الحديث هو عمر -رضي الله عنه-، الذي كان هذا انفعاله بالحديث وبالآية، فأطال في صلاة الضحى

على طريقة لم يكن يطيل فيها، وكان هذا منه استدراكًا لما فاته، هذا أولًا.

الأمر الثاني: لاحظي الحديث "من نام عن حزبه" فهذا المقصود به أن يكون للإنسان حزب يقرؤه في قيام ليله، وقيام الليل وقراءة القرآن من أعظم الأمور الممدوحة بعد الفرائض، ففيها من قوة سقي الإيمان ما فيها، ومن تأمل هذا الأمر؛ يعني تأمل قيام الليل، وما فيه من نداء رب العالمين للمؤمنين، يجد أن هذا من فضله عز وجل أن جعل لليل هذه الخاصية.

"مَنْ نَامَ عَنْ حِزْبِه مَنَ اللَّيلِ، أو عَنْ شَيءٍ مِنْه" يعني أنتِ معتادة أن تقومي قبل الفجر مثلًا بساعة، فيكون صلاتك مع وترك نفترض خمسين دقيقة والعشر دقائق الأخيرة تقضينها في الاستغفار، فالذي حصل أنك تأخرت، حيث نمت عنها تمامًا، وقمت لصلاة الفجر، أو الذي حصل أنك بدلًا من أن تقومي قبل الفجر بساعة، كانت نصف ساعة، وأنتِ متعودة أنك تقرئين جزءًا كاملًا من القرآن، فما استطعت في نصف ساعة أن تنهي الجزء، ما هو المطلوب منكِ؟ هل هناك فرصة للتدارك وكأنك صليته في الليل؟

الجواب: نعم، إذا صليتِه ما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر كُتب لكِ كأنما قرأتيه من الليل، والنبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((مَنْ نَامَ عَنْ حِزْبِه)) المقصود بالحزب هنا القرآن الذي التزم به، أو حدده لنفسه بأن يقرأه كل ليلة، تقرئين جزءًا، أو تقرئين جزئين، ... فتصوري رحمة رب العالمين بنا.

وقد ذكر ابن عبد البر في كتابه (التمهيد) تعليقًا على هذا الحديث يقول: "وهذا الوقت فيه من السعة ما ينوب عن صلاة الليل، فيتفضل الله برحمته على من استدرك من ذلك ما فاته"، وهذه نعمة عظيمة من رب العالمين، على كل حال هذا الموضوع -موضوع استدراك الوِرد القرآني الخاص بالليل- نبدأ به غدًا فنتكلم عن الليل كله؛ كيف أنه مكان لهذه الصلاة؟ وما أفضل طريقة للصلاة؟ وأفضل طريقة لتحزيب القرآن، وطبعًا كل هذا الأمر لنفهم كيف يحصل الاستدراك، وإن شاء الله نبدأ بآية سورة المزمل، والكلام عن ناشئة الليل، وكيف أثرها على النفس؟ ليكون هذا تنشيطًا لنا على قيام الليل، وحثًّا لنا على استدراك ما يفوتنا منه.

هذا والله أعلم، وصلى الله نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

(الاستدراك في قيام الليل)

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، نحمد الله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا، ونسأله بمنّه وكرمه أن يجعلنا من أهل الإيمان والتقوى الذين يستدركون ما فاتهم، ويعملون لما أمامهم، ويبذلون جهودهم في تصحيح نياتهم، وإصلاح قلوبهم، وإصلاح أعمالهم، اللهم آمين.

كنا بلغنا في كلامنا عن فقه الاستدراك الكلام عن شريعة الاستدراك، وأن الله -عز وجل- قد شرع لنا هذا، وناقشنا ثلاثة أدلة، وكان آخر دليل هو مشروعية التوبة، ونفس مشروعية التوبة دالة على أن الاستدراك أمر مشروع يحبه الله، وناقشنا بعد ذلك كيف يكون الاستدراك في الطاعات؛ في الأركان الخمسة -الصلاة والصيام والزكاة والحج-، وأيضًا الاستدراك في القرآن.

فتبين لنا أن القرآن من أعظم الأمور التي أرشدت الشريعة لاستدراك ما فاتنا فيها، ونص على ذلك الحديث الذي أخبرنا فيه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بأن ((مَنْ نَامَ عَنْ حِزْبِه مَنَ

اللَّيلِ)) وهذا -كما تبين أمس- معناه أن الإنسان له حزب، ماذا يفعل من فاته حزبه؟

هناك فرصة له أن يستدرك ما فاته بأن يصليه من النهار، فكان هذا الكلام سببًا لأن ندخل للكلام حول أحكام قيام الليل، فنتذاكر هذا الفعل العظيم، وهذه الشعيرة الجليلة التي هي من أفضل الشعائر بعد أداء الفرائض، وبدأت بها بالكلام لأنها تجمع بين أمرين:

*تلاوة القرآن.

*الصلاة لله في وقت من أعظم الأوقات عند الله.

فهي من أفضل الطاعات بعد الفرائض، فإذا كانت هذه طاعة -وهي ليست واجبة- فيها الاستدراك، فكيف بغيرها؟ الآن سنناقشها لنفهم هذه الطاعة؛ نفهم أحكامها، ثم نفقه بعد ذلك مسألة الاستدراك فيها.

صلاة الليل وقيامه هذه الشعيرة العظيمة والعبادة الجليلة التي فعلها أنبياء الله -صلوات الله وسلامه عليهم- واجتهدوا فيها، المفروض تكون شعارًا لأهل الإيمان، خصوصًا وأننا نعلم أن نبينا -صلى الله عليه وسلم- كان ملازمًا لها ومداومًا عليها، ونلحظ أيضًا أن الله -عز وجل- قد أمره بعبادته بهذه العبادة في أوائل البعثة {يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (1) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا} [المزمل :1:2]، فأمره عز وجل أن يقوم

بالليل، وأن يكثر من قيامه، ولذا نجد أن قدوتنا صلى الله عليه وسلم داوم عليه، وما كان يترك قيام ليلة.

وأيضًا هذه صفة لأنبياء الله -صلوات الله وسلامه عليهم-، كانوا يقومون الليل كما أخبر النبي -صلى الله عليه وسلم-، ونحن سنستفيد من هذه الأخبار في تنظيم حياتنا في الصلاة في قيام الليل، ففي حديث ((أَحَبُّ الصَّلاَةِ إِلَى اللَّهِ صَلاَةُ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ، كَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ وَيَقُومُ ثُلُثَهُ وَيَنَامُ سُدُسَهُ)) [رواه البخاري ومسلم] ينام نصف الليل، ويقوم ثلث الليل، ويرقد سدس الليل، فدل ذلك على أن أنبياء الله -صلوات الله وسلامه عليهم- كانوا يصلون هذه الصلاة العظيمة.

والحقيقة أن هذا هو دأب من كان بعدهم وسار على نهجهم، فإن العباد الصالحين لهم في قيام الليل أحوال عجيبة، ولهم في ذلك قصص تدل على قوة تمسكهم بهذه العبادة، وأن هذه العبادة أصبحت بالنسبة لهم كالزاد، وقد كنا نسمع من أهل العلم ما ينقلونه عن هؤلاء الصحب، وهؤلاء العلماء؛ يقولون إن قيام الليل أحب إليّ من كذا وكذا من أمور الدنيا، ويقولون إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة، ... وهكذا.

فنجد أن هذا بالنسبة لمن سلف كان ربيعًا، وكانوا يجدون أنفسهم فيه، وكان بعض الناس إذا وجد في نفسه تعبًا، ووجد في قلبه بعدًا، أقبل إلى الله -عز وجل- في صلاة الليل، إذا هجد الناس وانشغلوا يقوم هذا المسلم داعيًا مناديًا راجيًا مناجيًا لله -عز وجل-، فلا يعلم قيامه إلا الله -جلّ وعلا-، ولا يشكو بثه وحزنه وهمه وحزنه إلا لله -عز وجل-، لا يعلم بحاله أحد.

هذه العبادة العظيمة عندما نشعر بعظمتها نداوم عليها، وبعد ذلك إذا تكلمنا عن الاستدراك يكون هناك استدراك حقيقي لو شعرنا بقيمتها، أما ضعف الشعور بقيمتها هذا يسبب أن الإنسان يلتفت عنها، وإذا فاتته ما يشعر قلبه بحرارة لها، ولذا نذكر نفسنا أن هذه العبادة عظيمة الشأن جليلة القدر.

عظم شأن عبادة قيام الليل في القرآن:

قال الله فيها {إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا} [المزمل :6]، ناشئة الليل يعني العبادات التي تنشأ في الليل، فخص الله -عز وجل- هذه العبادة وهذا الوقت بهذا المدح العظيم، وبالتأكيد أن هناك أثرًا عظيمًا، ما معنى {إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا}؟ يعني ما تُنشئه من قيام الليل أشد مواطئة للقلب، و {أقوم قيلًا} في التلاوة والتدبر والتأمل، وبالتالي بالتأثر.

وأنت عندما تقرأ سورة المزمل تسمع الله يقول لرسوله -صلى الله عليه وسلم- {إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا (5) إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا} فما العلاقة بين الآيتين؟ في الآية الثانية إرشاد إلى ما يقابل هذا الثقل، القرآن كلام ثقيل عظيم، عظيمة معانيه، جليلة أوصافه، فكيف سنستقبله؟ وكيف سنجمع قلوبنا عليه؟ ناشئة الليل هي التي تقوم بهذا الدور، ما تُنشئه من قيام الليل هو الذي سيساعدك مساعدة عظيمة لقوة تحمل وفهم ما تقرأ من القرآن، ولذلك أهل العلم يقولون: لا يثبت القرآن في الصدر، ولا يسهل حفظه وييسر فهمه إلا القيام به من جوف الليل.

وكان أهل العلم كثيري العناية بالتمسك بالورد من الليل صيفًا أو شتاء، وهذا من معاني قوله تعالى {وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ } [البقرة :45]، وهذا من معاني أن النبي -صلى الله عليه وسلم- إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة، فناشئة الليل عونًا للإنسان على فهم القرآن، وعونًا للإنسان على مواجهة الحياة، ولذلك -كما قيل- إن قيام الليل كان فرضًا عليه صلى الله عليه وسلم قبل أن تُفرض الصلوات الخمس {وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ}، نافلة أي زيادة، وبعض أهل العلم قالوا أنه كان فرض عليه -صلى الله عليه وسلم- وعلى عامة المسلمين، ثم بعد أن فُرضت الصلوات الخمس خُفف عنهم.

ونحن نعلم أن النبي -صلى الله عليه وسلم- إذا عمل عملًا داوم عليه، فكان يقوم الليل شكرًا لله كما في حديث عائشة ((أفلا أكونُ عَبدًا شَكورًا)) [أخرجه البخاري في صحيحه]، الشاهد أننا نريد أن نصل أن (ناشئة الليل) وهي ما تنشئه في الليل من طاعات، (هي أشد وطئًا) يعني هي أكثر موافقة لما يُراد من جمع القلب ومن هدوء البال، فنحن ينبغي أن نكون حريصين على أدائها في وقتها، لأنها أشد وطئًا وأقوم قيلًا، (وأقوم قيلًا) يعني وقتما تقرأ الآيات يكون قلبك أكثر حضورًا في التلاوة وفي التأمل، وبالتالي في التأثر أيضًا.

وهذا لأن الليل له خاصية؛ الليل تهدأ فيه الأصوات، تنقطع فيه الحركات، وطبعا نحن نتكلم عن الليل الذي يجب أن يكون، لكن بعض الناس قد انقلب الليل عندهم نهارًا والنهار ليلًا وحصل من الخلط ما حصل، فهؤلاء يسألون الله -عز وجل- أن يردهم إلى طبيعتهم، ويمنعون عن أنفسهم الأدوات التي تقلب عليهم ليلهم إلى نهار، ويسألون الله أن يصفي لهم أذهانهم لكي يستفيدوا من الليل.

(أقوم قيلًا) يعني الليل تخرج فيه الأفكار والفهوم أصح مما يخرج في النهار، حيث يكون السمع والبصر خالي من الاشتغال، على كل حال نحن لنتكلم في هذه العبادة عن الاستدراك، لا بد أن نكون شديدي الاهتمام بها، لكي يحصل بعد ذلك استدراكها، لكن إذا ما

كانت هي أصلًا تشغلني، ولا هي من آمالي، ولا أنا أدرب نفسي عليها، ولا قد مضى لي زمن وأنا كنت أعمل بها، إذا لم تكن بهذه الصورة فالكلام عن الاستدراك يكون ما له قيمة.

نريد بهذه الجلسة أن نشحن نفوسنا لهذه الطاعة، ونهتم بها، ونربي أنفسنا على قيام الليل، وعلى استدراكه إن فاتنا، ونتذكر هاتين الجملتين من القرآن اللتان تصلحان النفس وتربيانها:

*(ناشئة الليل أشد وطئًا) على القلب وتأثيرًا ونفعًا له، وسببًا لرقته، وسببًا للينه لرب العالمين،

*(أقوم قيلًا) الكلام الذي نسمعه في هذا الوقت والكلام الذي نفكر فيه في هذا الوقت يكون أنفع للسامع، وأنفع للمتفكر.

ولذا -كما جاء في الأثر عن ابن مسعود لما ذُكر صاحب القرآن وحامله- قال ابن مسعود: "ينبغي لحامل القرآن أن يُعرف بليله إذا الناس نائمون"، فالأصل أن الإنسان إذا أراد أن يربي نفسه ويصلحها -وخصوصًا من له اهتمام بالعلم واهتمام بالقرآن- عليه أن يعتني بهذه العبادة العظيمة، وسنتكلم عن شيء من أحكامها، لأن الفقه فيها يساعدنا على القيام بها كما يحب الله ويرضى.

فأول ما نتكلم عن هذه العبادة الفاضلة أنه قد جاء عن النبي -صلى الله عليه وسلم- في الصحيح:

((أفضَلُ الصَّلاةِ بَعدَ الفَريضةِ صَلاةُ اللَّيلِ)) [أخرجه مسلم في صحيحه]، إذن هذا يدلنا على أن صلاة الليل هي أفضل النوافل، وأنها من أحب الأعمال إلى الله لا يُفاضلها إلا الصلوات المفروضة الواجبة -التي هي الصلوات الخمس-، فصلاة الليل هي أفضل الصلوات بعد الفرائض.

وهذا الحكم طبعًا يدل على أنها سنة وليست بواجبة، هي سنة مؤكدة، ومؤكدة معناه أنه يكره للمرء أن يترك قيام الليل بالكلية وألا يفعل شيئًا منه، وأقل قيام الليل ركعة وهو الوتر -كما سيأتينا إن شاء الله-، ولذا ورد عن الأئمة -ومنهم الإمام أحمد وغيره- أنهم لما سئلوا عن تارك قيام الليل ذموه، وبينوا أنه مخالف لهدي النبي -صلى الله عليه وسلم-، وهنا يقصدون أنه حتى لو ركعة، لأنها سنة مؤكدة.

نأتي الآن لنتصور أنه يوجد فرصة كبيرة جدًا لقيام الليل، وأننا لا نفرط أبدًا في القيام وأننا نستدرك ما فاتنا فيه، لكن هنا الاستدراك سيكون له شأن مختلف.

وقت صلاة قيام الليل:

أولًا نناقش ما يتعلق بوقت قيام الليل، ذكر العلماء -رحمهم الله تعالى- أن وقت قيام الليل يبدأ من غروب الشمس إلى طلوع

الفجر، يعني كل ما صلاه المسلم من بعد غروب الشمس إلى طلوع الفجر فإنه يسمي قيام الليل، يستثنى من ذلك الفرائض، يعني المغرب والعشاء فهذه ليست من قيام الليل لأنها فريضة.

لاحظوا كيف أن الأمر متسع، فبناء على ذلك ما يصليه المسلم بين العشائين هو من قيام الليل، وقد جاء أن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يتبادرون إلى السواري، فيصلون إليها بين العشائين -بين المغرب والعشاء-، وكذلك ما يُصلى بعد صلاة العشاء، يعني سواء صليت العشاء في أول وقتها، أو صليت في آخر وقتها، أو في وسطه، ما تصلينه بعدها هذا أيضًا من قيام الليل، ويمتد قيام الليل إلى طلوع الفجر كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- ((صَلاةُ اللَّيْلِ مَثْنى مَثْنى، فَإِذا خَشِيَ أَحَدُكُمُ الصُّبْحَ صَلّى رَكْعَةً واحِدَةً تُوتِرُ له ما قدْ صَلّى)) [متفق عليه]، (فَإِذا خَشِيَ أَحَدُكُمُ الصُّبْحَ) يدل على أن منتهى قيام الليل هو طلوع الفجر.

بناء على تحديد أهل العلم لوقت قيام الليل هذا سيدلنا على أن كل ما صُلي في ذلك الوقت -عدا الفريضة- يسمى قيام ليل، وهنا سنجد أمرًا لطيفًا نحتسبه على الله، يدخل في قيام الليل السنن الرواتب التي يؤديها المسلم بعد المغرب وبعد العشاء، ويدخل في قيام الليل أيضًا الذي نصليه في رمضان التراويح، فالتراويح أيضًا من قيام

الليل، والوتر من قيام الليل، لكن لكل شأن من هذا خصوصيته، فالرواتب لها شأنها، والوتر له شأنه، والتراويح لها شأنها، أقصد في عددها وكذا.

وهكذا اتضح لنا اتساع وقت قيام الليل، ولذلك يُذم ترك قيام الليل، فأنت عندك من بعد غروب الشمس وصلاة المغرب إلى صلاة الفجر وقت تتقرب فيه إلى الله بنافلة تدخل ضمن قيام الليل، ثم إذا ما فعلت أيّ شيء من هذا وما صليت الوتر وقتها يكون الاستدراك في النهار، هذا يعني أن هذه الصلاة التي هي قيام الليل من السنن، والسنن عند أهل العلم إذا كانت مؤقتة بوقت فإنه لا يصلح فعلها قبل وقتها، ولا بعد خروج وقتها، بعد خروج الوقت يُسمى قضاء، وفي الأصل لا يُقضى شيء من السنن إلا ما ورد عن النبي -صلى الله عليه وسلم-، والنبي -صلى الله عليه وسلم- لما أرشدنا في مسألة قيام الليل إلى قضائها -كما في فعل عمر رضي الله عنه- أرشدنا كأنها تكون صلاة الضحى، أي تؤدى في وقت صلاة الضحى، فيصلي الإنسان الضحى بنية استدراك ما فاته من قيام الليل، هذا لمن كان أصلًا يقوم الليل وفاته القيام.

ونحن يهمنا هنا أن نعرف كم عندنا فرصة كبيرة جدًا لصلاة الليل، بحيث أننا في الأصل نهتم ونقوم، فإذا فاتتنا لسبب من الأسباب

نقضيها، لكن عدم الاهتمام بها مع سعة الوقت هذه غفلة كبيرة، فالآن نحن عرفنا أن قيام الليل ممتد وقته من صلاة المغرب إلى طلوع الفجر، لكن هذا القيام باعتبار وقته ليس في الأجر سواء، فإن بعضه أفضل من بعض، قيام الليل ليس في الأجر سواء إما باعتبار الوقت، أو باعتبار الحال.

هكذا فهمنا أن هناك معياران بيّنهما أهل العلم -رحمهم الله- في تفضيل بعض قيام الليل على بعض، وما يدلنا على ذلك أن النبي -صلى الله عليه وسلم- ميز وفضل قيام داود عليه السلام على قيام غيره، فقال -صلى الله عليه وسلم-: ((أَحَبُّ الصَّلاَةِ إِلَى اللَّهِ صَلاَةُ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ)) [متفق عليه]، فدل هذا على أن بعض قيام الليل يكون أفضل من بعضه الآخر، باعتبار حال الإنسان، وباعتبار الزمان، وأشرنا إلى قيام داود أنه كان -عليه السلام- ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، ويرقد سدسه.

فأفضل القيام **-الدرجة الأولى-**، القيام بالصلاة بعد رقود، فقد فهمنا من الحديث أنه أفضل القيام قيام بالصلاة بعد رقود، وأن يتبع القيام رقود، ((وَكَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ وَيَقُومُ ثُلُثَهُ وَيَنَامُ سُدُسَهُ)) [متفق عليه] أي يكون قبله رقود ويكون بعده رقود.

هذا أفضل القيام قيام داوود؛ كان ينام نصف الليل، ثم يصلي، ثم ينام سدسه الأخير، هذا أفضل قيام؛ أن يسبقه نوم ويتبعه نوم، وقد كان نبينا -صلى الله عليه وسلم- يفعل ذلك فإنه كان إذا أوتر اضطجع على جنبه -صلى الله عليه وسلم-، فهذا كأنه حال النائم.

يليه في الأفضلية باعتبار الحال -يعني حال النوم- **الدرجة الثانية:** أن يكون قيام الليل بعد النوم، أي تنام أول الليل، وبعد ذلك تستيقظ الثلث الأخير من الليل، فتقوم مصليًا لله إلى قرب طلوع الفجر، ويحصل منك الاستغفار، ثم تصلي صلاة الفجر بعد ذلك.

الدرجة الثالثة: أن يكون قيام الليل قبيل النوم، فتنتهي من الصلاة وتنام مباشرة، هذا مثل حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- حيث جاء فيه ((أَوْصَانِي خَلِيلِي صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ بِثَلَاثٍ: ...)) ومن ذلك أوصاه: ((وَأَنْ أُوتِرَ قَبْلَ أَنْ أَرْقُدَ)) [أخرجه مسلم في صحيحه] هذه الدرجة الثالثة، أن يوتر قبل أن ينام، قال أهل العلم إن النبي -صلى الله عليه وسلم- أوصى بأقل الكمال.

الدرجة الرابعة: في قيام الليل ألا يكون سابق له نوم، ولا لاحق له، وهذا مثل الصلاة بين العشائين، ومثل الصلاة بعد العشاء مباشرة، وبعدها لا تنام، هذه درجة رابعة وهي داخلة في قيام الليل، ولها فضل لكنها أقل من الذي قبله.

فلاحظتم هنا عندما نفهم القيام، سنجد أنه في نفس فهمنا للقيام يوجد استدراك، بمعنى إذا وجدت نفسي أني ما أستطيع أن أفعل مثل فعل داوود -عليه السلام-؛ أني أنام أول الليل ثم أقوم أصلي، وبعدها أرجع أنام سدسه، ما أستطيع هذا، لا بأس، إذا ما استطعت الأفضل، إذن نَمْ وقُم، تشعر أنك لو نمت ما تستطيع أن تقوم إلا على الفجر، إذن قبل أن تنام صلِّ وأوتر مباشرة، أيضًا إن كانت عندك بعض المشاغل وتخافين أنك تنشغلين بصغير، أو أبناء، أو مثلًا تلبية حاجات أحد ممن أنت مسؤولة عنهم، إذن صلي بين العشائين، وأوتري بعد العشاء.

إذن هنا المعيار واضح؛ الاستيقاظ من النوم، أو يكون بعده نوم، لأن هذه الحال الذهن يكون فيها أصفى، لأن المرء إذا استيقظ من نومه كان ذهنه أصفى، أو إذا كان متجهًا إلى النوم فإنه لا يكون منشغلًا بشيء يريد أن يفعله، فيكون هذا أحسن، فهنا نفس الوقت فيه استدراك، يوجد الأفضل، ويوجد الأقل، على أربع مراتب.

المعيار الثاني لتفاضل قيام الليل بأن ننظر إلى الزمن، الليل زمن لكن ليس زمنًا بعضه كبعض، بل إن أفضل الزمن هو الثلث الأخير من الليل، وفيه ينزل ربنا -سبحانه وتعالى- فيقول: ((هَل مِن سائلٍ فأُعطيَهُ، هَل مِن مُستَغفرٍ فأغفرَ لَهُ)) [أخرجه أحمد

(١٦٧٤٥)]، فالثلث الأخير ساعة يُرجى فيها إجابة الدعاء، ولذلك كان الثلث الأخير من الليل فاضلًا، وأفضل الثلث الأخير نصفه الأول، أفضل من نصفه الأخير في قيام الليل.

لمرة أخرى، انتبهوا معي في هذه؛ أفضل الليل وقتًا هو الثلث الأخير، فكأننا قسمنا الليل ثلاثة أقسام، والثلث الأخير هذا نقسمه إلى قسمين؛ القسم الأول فيه أفضل من القسم الأخير فيه، وهنا يظهر لك كلمة (السدس) لأنه كان داود -عليه السلام- ينام السدس، فالسدس الخامس أفضل من السدس السادس، فيكون أفضل القيام السدس الخامس ثم يليه السدس السادس من الليل.

داود -عليه السلام- كان ينام نصف الليل، كأنك تقسم الليل إلى ستة أسداس، فينام النصف الأول -وهو الثلاثة أسداس الأولى-، ثم يقوم ثلثه وهو السدسان الرابع والخامس معًا، وهنا وقت النزول الإلهي، وإن كان وقت النزول يستمر إلى طلوع الفجر، لكن الذي يجتمع فيه الفضلان هو السدس الخامس؛ حيث تكوني قمت بعد النوم، وفي نفس الوقت وافقتِ وقت النزول الإلهي.

إذن يترتب لنا من الحديثين:

*أن أفضل قيام الليل -الدرجة الأولى- هو السدس الخامس.

*ثم السدس السادس -آخر الأسداس-.

*ثم السدس الرابع الذي قبله.

وهذه الأسداس الثلاثة -الرابع والخامس والسادس- هي النصف الأخير من الليل.

*ثم الدرجة الرابعة النصف الأول من الليل.

نخلص من هذا أن قيام الليل:

*يتفاضل باعتبار الحال -يعني باعتبار النوم- يتفاضل إلى أربع درجات.

*يتفاضل باعتبار الزمن، فإن زمن النزول الإلهي خير من الأزمنة التي قبلها،

لكن هنا نقول إنه لا بد أن تحرص على أن يكون لك نصيب من قيام الليل، وإذا وجدت نفسك لن تستطيع القيام في آخره في الثلث الأخير من الليل، فاستدرك هذا الأمر بأن تصلي قبلها، التي هي كما اتفقنا أربعة أحوال باعتبار النوم:

*أقل شيء أنك تصلي بين المغرب والعشاء.

*ثم أفضل منها أن تصلي بعد العشاء لكن بعيد عن نومك.

*ثم أفضل منها أن أن تصلي قريب جدًا من نومك، بحيث تنتهي من الصلاة وتذهب للنوم.

*وأفضل منها أن تصلي بعدما تنام.

فصارت هذه أربعة أحوال، إذا ما استطعنا أعلاها نستدرك نفسنا ونأخذ الذي نستطيعه، هذا المقصود، وعلى كل حال الإنسان لو بدأ بتدريب نفسه وإلزامها بقيام الليل، سنجد أنفسنا في حال من التحسن، يعني نكون روضنا أنفسنا على الطاعة والعبادة، فإذا لم يكن أصلًا لي شيء من قيام الليل أبدأ بترويضها، وما آخذها بالأشد والأصعب والأكمل، لأن النفس تملّ، لكن خذيها بالإلزام رويدًا رويدًا لكي تستدركي ما يفوتك، المهم أننا نحتاج إلى تدريب ورياضة نفسية حتى نقوم بين يدي الله، وما يفوتنا هذا الفضل العظيم، وقد ذُكر عن الإمام ثابت البناني -رحمه الله- أنه قال: "كابدتُ نفسي على قيام الليل عشرين سنة، وتلذذتُ به عشرين سنة".

بعض طلبة العلم -حفظهم الله- عندما يسمعون عن قيام داوود -عليه السلام-، وقيام نبينا -صلى الله عليه وسلم-، يأخذ نفسه بالأشد ويسعى لفعل الأكمل باعتبار الحال، والزمن، وعدد الركعات، وطول الهيئة، ثم لا يستطيع الاستمرار، ونحن نعلم أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((عَلَيْكُم ما تُطِيقُونَ مِنَ الأعْمالِ، فإنَّ اللَّهَ لا يَمَلُّ حتّى تَمَلُّوا)) [متفق عليه]، ونسمع أيضًا من حديث عائشة في وصف النبي -صلى الله

عليه وسلم- أن عمله -صلى الله عليه وسلم- كان ديمة، يعني دائم، فقليل مستمر خير من كثير منقطع.

فالمسلم يتدرب ويبدأ بأول الدرجات، ثم يترقى ويعوض، يستدرك لكي يبقى مربيًا لنفسه، يصلي وتره وقيام ليله، ونفترض أن أحدًا ما سبق له أنه صلى قيام الليل، فيبدأ بأن يصلي وتره وقيام الليل بعد صلاة العشاء مباشرة، فإذا اعتاد على ذلك أخره لقبل نومه، فإذا اعتاد على ذلك جعل بعضه قبل قيامه للفجر، ثم يتدرب على ذلك حتى يصل إلى الكمال.

وهنا يكون قد ربى نفسه على الطاعة، وهنا يكون بهذا استدرك ما فاته من الزمن الفاضل، هنا الاستدراك سيكون بالعكس، إذا ما استطعت الزمن الفاضل والحال الفاضلة، فعليّ أن أستدرك مادام عندي فرصة، وأصلي في الوقت الذي يتيسر لي الصلاة فيه، لأن المجال مفتوح ويبقى اسم هذه العبادة (قيام الليل).

وهنا نؤكد أن صلاة الليل ليس لها عدد، كل ما يُصلى من النوافل من بعد غروب الشمس إلى طلوع الفجر فهو داخل في صلاة الليل، ومنه الوتر، ومنه التراويح في رمضان، فهذا يدلنا أو هذا يفهمنا حديث النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((صلاة الليل مثنى مثنى))، يعني صلوا الليل ركعتين ركعتين، ولم يجعل النبي -صلى الله عليه وسلم- لصلاة الليل حدًّا، فدل ذلك على أنه لا حد لصلاة الليل، يصلي الإنسان ما يشاء.

وقد وقع اللبس عند بعض طلبة العلم، عندما يقولون: "لا، النبي -صلى الله عليه وسلم- صلى إحدى عشرة ركعة"، هذا المقصود به الوتر، نعم الوتر وردت السنة أنه لا يزاد على إحدى عشرة ركعة، لكن قيام الليل أشمل من الوتر وأعم وأطول.

ولذلك الصحابة قد ورد عنهم أنهم يصلون عشرين وثلاثين في الليلة الواحدة في رمضان، ولا يمكن أن يكونوا يصلون هذا وهم يعلمون أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يلازم على إحدى عشرة ركعة، لكن النبي -صلى الله عليه وسلم- في الوتر كان يلازم على إحدى عشرة ركعة، فصلاة الليل والوتر بينهما عموم وخصوص؛ فكل وتر هو من صلاة الليل وقيامه، وليس كل قيام هو وتر.

وهذا الأمر التبس على بعض طلبة العلم، وتداخل عليهم الحكمان، ربما حرم نفسه من بعد الصلاة صلاة الليل وقيام الليل رغبة في اتباع السنة، لكن كما قال الإمام أحمد: يُنزل كل حديث في محله، وأما الوتر فهذا له خصوصيته.

نأتي هنا ونلحظ أن أهم خصوصية لصلاة الليل هي قراءة القرآن والإطالة فيه، فنصلي ركعتين ونسلم، هيئة الصلاة ركعتين

((صلاة الليل مثنى مثنى))، معنى مثنى مثنى يعني يسلم في كل ركعتين، هذه السنة في صلاة الليل ما عدا الوتر.

والوتر كيف يُصلىّ؟ يُصلى كما هو مشهور؛ يصلي ركعتين ثم يأتي بواحدة ويدعو ثم يسلم، لكن يجوز أن يصلي أربعًا سردًا بسلام واحد، ثم يصلي ركعة، أو يصلي الثلاثة كلها بسلام واحد، هذا كله على سبيل الجواز، لكن على سبيل الأفضل والأتم؛ يصلي اثنتين ثم يوتر، الوتر له هيئة مختلفة يصلي ركعة يصلي ثلاثة يصلي خمسة يصلي سبعة هذا هو الوتر.

أعيد مرة أخرى من أجل ألا يلتبس الأمر:

صلاة قيام الليل تكون مثنى مثنى، ويوجد الوتر الذي يريد الإنسان به أن يختم ليلته، فمثلًا صليت ركعتين قيام الليل، ثم أردت أن توتر، فيمكنك أن تصلي ركعة، أو أن تصلي ثلاثة، أو أن تصلي خمسة، أو أن تصلي سبعًا، وسيأتينا -إن شاء الله- أيضًا زيادة في بيان الوتر.

وأود أن أركز على أمر لكيلا يفوتني؛ أهم شيء في صلاة الليل:

أهم شيء في صلاة القيام هو قراءة القرآن، فيبذل الإنسان المؤمن بالله جهده أن يحدد لنفسه أجزاء من القرآن لكل ليلة يقرؤها في الصلاة، هذه الأجزاء يحرص على أن يتمها، فإذا ما استطاع أن

يتمها في ليله لعارض عرض له، يستدرك -هذه الأجزاء- في النهار، فيصلي صلاة الضحى ويستدرك قراءة القرآن، أو يستدرك ورده الذي كان يجب عليه أن يقرأه في الليلة الماضية.

فإذن السنة إطالة القراءة، وإطالة القراءة معناها أني أحيانًا أو كثيرًا من الأحيان أحتاج أحمل المصحف لكي أصلي وأطيل القراءة، لأن هذا المقصود، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- كان يقوم بالبقرة في ركعة، وفي بعض الروايات قام بالبقرة وآل عمران والنساء، فهذا مقصود، لكن قد يقول قائل: "أنا لا أحفظ، وحتى لو كنت حافظًا، ما أستطيع أن أستحضرها كلها، فأكيد يحصل لي خطأ"، وعلى ذلك سنحصر هذه الصفة -التي هي إطالة الصلاة- في الحفاظ المتقنين الحفظ، نقول: كلا، يصلح في هذه الصلاة حمل المصحف، وقد ورد أن عائشة -رضي عنها- كان يؤمها عبدها ذكوان، يحمل المصحف في قيام الليل، فهذا دليل.

لماذا العلماء رأوا أنه لا بأس من حمل المصحف في صلاة النافلة مقابل عدم حمل المصحف في صلاة الفرض؟

لأن صلاة النافلة أخف في مسألة الحركة، أما صلاة الفرض فالحركة فيها تفسد الصلاة، فذكر أهل العلم -رحمهم الله- أن القراءة في صلاة الليل في المصحف جائزة من غير كراهة، وتبين

لنا أن أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- كان يؤمها مولاها، وكان يقرأ من المصحف، أما غير صلاة الليل من الفرائض العلماء يمنعون القراءة من المصحف، لأنها حركة والحركة مكروهة، لأنها مخالفة لصفة الصلاة، أما في صلاة الليل ارتفعت هذه الكراهة للحاجة؛ لأن من أعظم مقاصد صلاة الليل قراءة القرآن، وإذا أردنا أن نحقق هذا الهدف -وهو قراءة القرآن- ولم يكن هناك حمل للمصحف، أصبح هذا الأمر لا يتحقق إلا عند الحفاظ المتقنين للحفظ.

وأحسن حالة في هذا الأمر أن نجعل القرآن على حامل أمامنا، ثم نضطر للحركة فقط في قلب الصفحات، بهذا نكون تقريبًا تكلمنا عن قيام الليل، وتكلمنا عن سعة وقته التي نستطيع معها استدراك شأننا، ومع ذلك لو حصل وما استطعنا أن نقوم الليل ونقرأ وردنا الذي حددناه، فإن في النهار سعة في صلاة الضحى، فالباب واسع، والأمر عظيم، فلا يُترك هذا الأمر، بل نعتني به غاية العناية.

بإذن الله في لقائنا القادم نعيد الكلام عن خصوصية الوتر عن القيام، ونؤكد العناية بالوتر، حتى إذا فات الإنسان قيام الليل يحرص على الأقل أن يوتر، ثم يصلي -يستدرك- قراءته في ضحى نهار ثاني يوم وهو يصلي الضحى، المهم في هذا الكلام

كله أن نربي نفسنا على التزام طاعة الله، والاستفادة من أوقاتنا، هذا أهم ما يُقال في هذا الشأن.

ألقاكم على خير حال، سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

)الاستدراك في العبادات وعند الموت وفي طلب العلم)

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، نحمد الله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا، ونسأله بمنته وكرمه علينا أن يجعلنا ممن استدرك زمانه، واستغل عمره في قربات تنفعه عند ربه، فكان يوم الفزع الأكبر من الآمنين، وكان من المبشرين بجنات النعيم. اللهم آمين.

نسأله بمنه وكرمه أن يجعل ما بقي من أعمارنا سببًا لرفعة درجاتنا، اللهم اغفر لنا، ولوالدينا، ولوالديهم، ولذرياتنا، ولأزواجنا، وللمسلمين والمسلمات، اللهم آمين.

لا زلنا في هذا الموضوع المهم، وهو موضوع (فقه الاستدراك)، والمقصود بذلك ألا يقع في نفوسنا أبدًا يأس من روح الله، فإن الروح إذا لا زالت باقية في البدن ولم تأتِ لحظة الاحتضار، وإذا النفس لا زالت موجودة والعقل محفوظ، فإن الفرصة مؤاتية، لا زال لدينا فرصة للنجاة، فمن اشتغل بهذا الأمر -اشتغل بطلب النجاة- وجد الله غفورًا رحيمًا، وجد في شريعة الله أصنافًا مما

يدل على رحمة الله بخلقه، أصنافًا من الأعمال القلبية، والأعمال الجارحية يستطيع الإنسان بها أن يمحو ما مضى من إهمال ومن أخطاء، ويستطيع أن يضاعف حسناته فيقبل على الله بما يرضي الله، يقبل على الله بما يسرّ العبد أن يقبل به على الله يوم أن يلقاه.

وقد توقفنا طويلًا عند مسألة استدراك أورادنا في قيام الليل، وفتح لنا هذا الموضوع مناقشة مسألة قيام الليل وأفضل القيام، وتعرفنا على هذا الموضوع بشيء من التفصيل، وهنا أؤكد أننا لا بد أن نربي أنفسنا تربية صحيحة، بحيث أننا نأخذها من الضعف إلى القوة، ومن الإهمال لهذه الأمور العظيمة إلى الاهتمام بها، ومن الكسل إلى الهمة.

النفس تحتاج إلى تربية، تحتاج إلى إرشاد، وتحتاج إلى مناقشة، فيبقى الإنسان يناقش نفسه؛ ما الذي يمنعنا من كذا؟ ما الذي يكسلنا عن كذا؟ إلا هو عدونا الشيطان، إلا هو هوى نفسنا الذي يدخل منه الشيطان علينا، إلا وهم الناس الذين قد يتسلطون علينا، فيحركوننا على هواهم، فيلاحظ الإنسان حاله، يلاحظ الإنسان مواطن كسله ومواطن همته، فيربي نفسه على ما يحب أن يرى ثماره عندما يلقى ربه.

وهذا مناسب لكل موضوع فقه الاستدراك وخاصة لموضوع قيام الليل واستدراك ما يفوتنا من وردنا بالليل، لأن هذا النموذج بالذات -نموذج قيام الليل- من أوضح النماذج الذي يبين هذا الشرع العظيم، فأنت تصور أن من أن تغيب الشمس يبدأ معك قيام الليل، يعني بعد صلاة المغرب يكون ابتدأ وقت قيام الليل إلى أن يأتي وقت الفجر، فهذا وقت طويل لا يمكن لعاقل أن يقول أنا لا أستطيع أن أقوم الليل.

نعم هناك تفاضل في قيام الليل كما مر معنا، وأنا أعيد إن شاء الله هذا الكلام لأجل أن يثبت، لكي تتصور الشرع، وتتصور أن رب العالمين قد فتح للعباد مجالات عظيمة، وجعل القرب منه -سبحانه وتعالى- وهو الغني عن عباده جعل القرب منه أمرًا يسيرًا، فبقي أن نعلم أن ما يهلك على الله إلا هالك، وأن الإنسان إذا ما تحقق له هذا الشأن يتحقق له هذا.

مر معنا أن أحب الصلاة إلى الله -عز وجل- صلاة داوود -عليه السلام-، كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه، ومر معنا أيضًا أن ثلث الليل الآخر هو وقت التنزل الإلهي، وفهمنا من ذلك أننا نقسم الليل من أذان المغرب إلى أذان الفجر إلى ستة أقسام، وبالجمع بين الأحاديث يكون القسم الخامس هو الذي يتحقق فيه

الفضلان معًا؛ أحب الصلاة صلاة داوود، ووقت التنزل الإلهي، فيكون هذا أحب الصلاة إلى الله.

الذي لا يتحقق معه هذا الأمر من الأفضلية، فنقول له قم في الثلث الأخير من الليل، حتى لو ما وافقت السدس الخامس، لكن وافقت السدس السادس، لا بأس، بذلك تكون في الأفضلية، لأنك داخل في الثلث الأخير من الليل الذي ينزل فيه ربنا كما في الحديث؛ ((يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرُ، يَقُولُ: «مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟)) [متفق عليه]

فإذا ما استطعت ذلك فليكن قبل نومك، وإذا ما استطعت ذلك فليكن بعد صلاة العشاء، وإذا ما استطعت ذلك فليكن بعد صلاة المغرب، وهذا كله داخل في قيام الليل، وهنا يتبين الفرق بين قيام الليل وبين صلاة الوتر.

ما الفرق بين قيام الليل وصلاة الوتر؟

قيام الليل هذا القيام الممتد من المغرب إلى الفجر، أما الوتر فلا بد أن يكون بعد صلاة العشاء، فنوتر بعد صلاة العشاء في أيّ وقت من بعد صلاة العشاء، إذا كان الإنسان لا يستطيع أن يقوم من نومه لأيّ سبب فليوتر قبل أن ينام، وإذا استطاع الإنسان أن ينام

ويقوم في السدس الفاضل فالحمد لله، أو يقوم في الالثلث الأخير فالحمد لله يوتر في ذاك الوقت، ويمكن أن يصلي في أول الليل ويوتر في آخره، الحمد لله.

الباب واسع جدًا، وهو من أحسن النماذج الدالة على أن هذه الشريعة شريعة كاملة، يسرت للناس الوصول إلى رب العالمين، فليكن منا الاجتهاد ولا نكون من المحرومين -نعوذ بالله من الحرمان-.

أيضًا مر معنا -ونقول هذا الكلام للتأكيد- أن كل العبادات قد جعل الله فيها استدراكًا، وجعل الله فيها طريقًا لإتمام العمل، وهذه وظيفة النوافل؛ فصيام رمضان واجب، ثم يأتي ستًا من شوال يتمم للعبد الاستدراك، ويأتي صيام يوم عرفة، وصيام يوم عاشوراء، وصيام الاثنين والخميس من كل أسبوع، فيكون الأمر يسيرًا على من يسره الله له، وبهذا يكون الإنسان على نور في هذا الشرع الكريم، لأنه يعرف أنه يجب عليه أن يقوم بهذه العبادات، ثم يعرف أنه يستطيع أيضًا أن يستدرك ما فاته من هذه العبادات.

فانظروا في مسألة استدراك الصيام:

*الصيام فيه استدراك من نفس الجنس، فكما تبين نصوم ستًا من شوال والاثنين والخميس، وعاشوراء ويوم عرفة، الحمد لله.

*وهناك استدراك ليس من نفس الجنس ((إنَّ المؤمنَ ليُدرِكُ بحُسنِ الخُلقِ درجةَ الصّائمِ والقائمِ)) [أخرجه أبو داود (٤٧٩٨)، وأحمد (٢٤٣٥٥)]، فهذا يؤكد لنا أن حسن الخلق والأدب طريق للاستدراك، فهذه عبادة.

ودائمًا يتكرر الكلام عنها لكن تكاد تكون مهجورة عملًا أو مهجورة في النية، فقليل منا من يجاهد نفسه على حسن الخلق ليستدرك ما نقص من صيامه وما نقص من قيامه، وهي كفارة يعني بمثابة سبيل من سبل استدراك الصيام، لا نقول إن حسن الخلق أصعب من الصيام، لكن نقول حسن الخلق يحتاج إلى جهاد؛ فهو يحتاج إلى أن يتحكم الإنسان في نفسه، يحتاج إلى أن يُغالب الإنسان طبعه، يحتاج إلى أن يحسن نيته، يحتاج إلى أن يطلب من ربه -سبحانه وتعالى- التوفيق، فهذا نوع استدراك للصيام، ونوع استدراك للقيام.

ومثل هذا أيضًا أن الإنسان يستدرك الصيام مثلًا بتفطير صائم ((من فطَّر صائمًا كان له مثلُ أجره، غير أنه لا ينقصُ من أجر ال صائمِ شيئًا))[أخرجه الترمذي] فتصوروا الأمر كالتالي:

أول طريقة للاستدراك في الشريعة هو أن الأمور نفسها التي شُرعت لنا واسعة، إذا لم تفعلها في هذا الوقت تفعلها في هذا

الوقت، إذا لم تفعلها في هذا الوقت تفعلها في هذا الوقت، وكان مثاله مسألة قيام الليل.

النوع **الثاني** من الاستدراك الذي مر معنا هو: أن نحاول أن نتمم الفرائض بأعمال من نفس جنسها؛ أي بنوافل الفرائض، فتصلي الفريضة مثلًا فريضة الظهر وتصلي قبلها وبعدها نافلة، فهذه تُنظر لك يوم القيامة، لأنه في الحديث ((إنَّ أوَّلَ ما يُحاسَبُ الناسُ به يومَ القيامةِ مِن أعمالِهم الصَّلاةُ، قال: يقولُ ربُّنا عزَّ وجلَّ لملائكتِه -وهو أعلَمُ-: انظُروا في صلاةِ عبدي أتَمَّها أم نقَصَها؟ فإنْ كانتْ تامَّةً كُتِبتْ له تامَّةً، وإنْ كان انتقَصَ منها شيئًا، قال: انظُروا، هل لعبدي مِن تطوُّعٍ؟ فإنْ كان له تطوُّعٌ، قال: أَتِمُّوا لعبدي فريضتَه مِن تطوُّعِه. ثمَّ تؤخَذُ الأعمالُ على ذاكم)) رواه البخاري.

فإذن هذا النوع الثاني يكون نافلة من نفس الجنس.

النوع **الثالث**: ثم عرفنا أن هناك استدراكًا لبعض الطاعات، لكن ليس من نفس الجنس، هذا أمر ثالث وهو أن المؤمن بنفسه يقوم بعمل آخر، لكن هذا العمل الآخر يكون به استدراك لطاعاته، ونموذج هذا أن المؤمن يدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم.

النوع **الرابع**: أنه يمكن أن يستدرك الإنسان بأن يعين غيره على نفس الطاعة، نموذجه في الصيام هذا المثال الواضح: ((من فطر

صائمًا)) [أخرجه الترمذي]، وقد مر معنا أيضًا أنه ممكن يكون هذا التفطير لأهل بيته، وهذا المرأة تأخذ فيه النصيب الأكبر حيث تكون هي تفطر أهل البيت، فتأخذ أجرهم وتتمم صيامها، وهذا طبعًا مهم جدًا فيه النية، ويمكن أن يأتي من نفس النوع مثلًا تحجيج حاج، أن يعين حاجًا على الحج، فيكون هذا أيضًا نوع استدراك.

فأصبحت هذه أربعة أنواع، فلو أتينا مثلًا لحديث ((ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بالدَّرَجَاتِ العُلَى، وَالنَّعِيمِ المُقِيمِ)) [أخرجه مسلم في صحيحه]، ويدلهم النبي -صلى الله عليه وسلم- على التسبيح، التسبيح ليس صيامًا ولا صلاة ولا صدقة، لكنه طريق للاستدراك، فهو يشبه ((إنَّ المؤمنَ ليُدرِكُ بحُسنِ الخُلقِ درجةَ الصّائمِ والقائمِ)) [أخرجه أبو داود (٤٧٩٨)، وأحمد (٢٤٣٥٥)] وهؤلاء بتسبيحهم يبلغون صدقات أولئك القوم الذين كما جاء في الحديث ((قالوا: يُصَلُّونَ كما نُصَلِّي، وَيَصُومُونَ كما نَصُومُ، وَيَتَصَدَّقُونَ وَلَا نَتَصَدَّقُ، وَيُعْتِقُونَ وَلَا نُعْتِقُ،)) فكيف نبلغ درجتهم؟ بعمل آخر مختلف: ((فَقالَ رَسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ: أَفلا أُعَلِّمُكُمْ شيئًا تُدْرِكُونَ به مَن سَبَقَكُمْ وَتَسْبِقُونَ به مَن بَعْدَكُمْ؟ وَلَا يَكونُ أَحَدٌ أَفْضَلَ مِنكُم إلَّا مَن صَنَعَ مِثْلَ ما صَنَعْتُمْ قالوا: بَلَى، يا رَسولُ اللهِ قالَ: تُسَبِّحُونَ، وَتُكَبِّرُونَ، وَتَحْمَدُونَ، دُبُرَ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ مَرَّةً)).

فالتسبيح من جنس عمل آخر غير الصدقة بالمال، لكن تستطيع أن تستدرك به، وهذا الفقه يجعلك تعرف أنه لا يهلك على الله إلا هالك، من يهلك على الله بعد هذا كله؟! سبحان الله!

وأيضًا من نفس النوع -أن تستطيع تستدرك عملاً لكن بعمل ليس من جنسه- مثل ما مر معنا ((مَن خرَج مِن بيتِه مُتطهِّرًا إلى صلاةٍ مكتوبةٍ، فأجرُه كأجرِ الحاجِّ المُحرِمِ، ومَن خرَج إلى تسبيحِ الضُّحى لا ينصِبُه إلّا إيّاه، فأجرُه كأجرِ المُعتمِرِ)) [أخرجه أبو داود] لا يحمله على الخروج إلى صلاة الضحى إلا ذلك، ونفس الأمر في الجلوس في المسجد حتى شروق الشمس، الذهاب للمسجد بنية التعلم والتعليم يكون له أجر كأجر حاج تامة حجته، هذا ليس من نفس الجنس، لأنه ما حج ولا اعتمر ولا حج نافلة، إنما فعل أفعالًا أخرى ليست من نفس جنس الحج، لكن يستدرك بها الحج، فهذا نوع يجب أن نلتفت له.

ومثله نوع من أنواع الاستدراك من الأربعة أنواع أن يأتي بعمرة مثلًا في شهر رمضان فتكون كأنها حجة مع النبي -صلى الله عليه وسلم-، هذا يعتبر من نفس جنسه إلا أنه يختلف من كونه حجًا إلى كونه عمرة.

إن شاء الله الأنواع الأربعة واضحة، ومنها أن يدرك الإنسان بحسن الخلق درجة الصائم القائم، يدرك الإنسان بمشيه -وهنا الأمر يخص الرجال- بمشيه إلى المسجد متطهرًا كأنه حج، أو يصلي في مسجد قباء كأنه أدى عمرة، كما في الحديث ((من تطَهَّرَ في بيتِهِ ثمَّ أتى مسجدَ قباءَ لا يريدُ إلا الصلاةَ فيهِ كانَ كعمرةٍ)) [أخرجه ابن ماجه ١٤١٢] هذه ليست من نفس الجنس.

قد يقول أحد: لماذا اختصت هذه العبادات بكذا؟ لماذا هذه العبادات تعوض عن هذه العبادات أو يأخذ الإنسان أجرها؟ هنا نقول ما قاله ابن عبد البر.

يقول: "والفضائل لا تدرك بقياس، ولا مدخل فيها للنظر، وإنما فيها التسليم والتعلم والشكر".

وأنا أحتسب على الله أن مناقشتنا لهذا الموضوع كله نوع من أنواع الشكر لله -عز وجل- أن جعل بابه واسعًا، وأن جعل مع ضيق العمر للذي يفيق لنفسه متأخرًا يجد متسعًا لكي يسابق من سبقه، وقد يفوقه بالاجتهاد، وبالتوجه إلى الله، وبحسن النية.

الحمد لله رب العالمين، أهل الإسلام في نعيم؛ في نعيم بمعرفتهم برب العالمين، في نعيم من هذا الشرع القويم.

الآن ستجد في هذا المبحث القادم أن الاستدراك موجود في الجانب الفقهي بصورة واضحة، يعني أثناء العبادات يوجد فرصة لإصلاح الأمر وتلافي الخطأ.

فمثلًا نأتي على أمور أربعة تامة الوضوح:

مثلًا سجود السهو، هذا الاستدراك الذي يكون في الجانب الفقهي، فترى سعة الشريعة، وتعرف أن الشريعة ما تضيع عليك طاعاتك، ولا عباداتك، ولا تحرمك من الفرص، وسنذكر أربعة أوضاع شرعية تدل على ذلك:

الأمر الأول (سجود السهو) وهذا يستدرك به الخلل الحاصل في الصلاة في الأقوال أو الأفعال، مثل لو نسي التشهد الأول.

الأمر الثاني (فرصة الإعادة) يعني إذا حصل خطأ في الصلاة يبطلها -قبل أن يخرج وقتها-، يعيدها صحيحة في الوقت أداء وليس قضاء.

الأمر الثالث وهي (أن يقضي) لو خرج وقتها، فهل توجد فرصة للاستدراك أكثر من هذا الحديث: ((مَن نَسِيَ صلاةً فلْيُصَلِّها إذا ذَكَرَها، لا كفارةً لها إلا ذلك)) [متفق عليه]، ما أعظم هذه الفرصة تقضيها بإذن الله تقبل عند رب العالمين .

النموذج الرابع: (الفدية)، وهي مخرج شرعي، الفدية مثلًا لو أفطر في رمضان لشيخوخة يعجز معها عن الصيام، أو كان مثلًا قادرًا على العبادة لكن وقتها خرج، وهذا النوع يكون قضاؤه صعب، مثل رجل ترك رمي الجمار بمنى حتى انتهت أيام التشريق، أو وقع في نقص أو وقع في محرم، فيستطيع أن يفدي أثناء إحرامه أو عمرته، وبذلك يتم عمله، حتى لو أخطأ.

فهذا أمر عظيم، وبهذا لا تبطل أعمال العباد، فهذه الأربعة نماذج دليل على أن الفقه الإسلامي وهذه الشريعة الغراء تجعلك تستطيع أن تتمم أعمالك ولا تبطل أعمالك لخطأ وقع فيها، وإن وقع خطأ تستطيع أن تقضي ولا يكون فاتك الأمر، فهذه نعمة عظيمة.

أيضًا من خلال الشرع نستدل على سعة هذا الباب (باب الاستدراك)، وهنا نتكلم عن أمور نستطيع تعويضها وتحصيل الأجر، فمثلًا لو نسيت ذكر التسمية عند أول الطعام ((إذا أكَل أحَدُكم فَلْيذكُرِ اسمَ اللهِ تعالى، فإن نسِي أن يذكُرَ اسمَ اللهِ تعالى في أوَّلِهِ، فليقُلْ: بسمِ اللهِ أوَّلَهُ وآخِرَهُ)) [أخرجه أبو داود (٣٧٦٧)] فهذا استدراك، تستطيع أن تستدرك، وأود منكم أن تشعروا بهذه المنة أننا في كل طريق رب العالمين جعل الشرع مناسبًا لبشريتنا وآدميتنا.

ممكن نأتي بمثال **الوصية**:

الوصية فيها أيضًا نوع استدراك، يكون الإنسان فات في حياته، فيأتي في الوقت قبيل وفاته، وقد شعر أن الأجل قد دنا منه، فإن له أن يوصي بثلث ممتلكاته، أن تنفق في مصارف الخير، مثل بناء المساجد، والمشافي، والمدارس ورعاية الأيتام، ...، تدر عليه من الحسنات ما الله أعلم بها.

ومن أحسن ما يقال في باب الوصية الأوقاف التي ينشئها الإنسان في حياته، وهي من أعظم القرب في الصدقات لأن بها يستدرك الإنسان أعمالًا وأجورًا، ويطول عمر هذا الاستدراك حتى بعد موته، فمثلًا يوقف أوقافًا على طلبة العلم، أو يوقف أوقافًا على حفظ القرآن، فهذه من جهة تكون صدقة يستدرك بها الصدقات، ومن جهة أخرى حفظ هؤلاء للقرآن وطلبهم للعلم يستدرك به الأجور المترتبة على حفظ القرآن، لأنه جعل غيره يحفظ، جعل غيره يتفرغ للحفظ وهو ينفق عليه، أو جعل غيره يطلب العلم وهو ينفق عليه.

فبهذا تكون الأوقاف من أعظم أنواع الاستدراك، ولذلك في الفقه الإسلامي تجد هذا الباب له أحكامه الدقيقة جدًا، وتجد في التاريخ الإسلامي أمرًا عظيمًا، فقد أوقف المسلمون فيما سبق على أعظم

الأمور وعلى أيسر الأمور، أوقف المسلمون فيما سبق أموالهم على من يُعلم، على إنشاء المساجد، على الأمور العظام التي يُصد بها العدو، وعلميًا على إنشاء المكتبات، توزيع الكتب، تعليم القراءة والكتابة، إلى أن أوقفوا حتى -كما يُذكر في الشام- كان هناك وقف للغلمان الذين تكسر أوانيهم، يعني مثلًا عندما يرسله أصحاب البيت بإناء ليأتي من السوق بشيء فينكسر، فهذا الوقف يعوض الغلام إناءه المكسور بإناء آخر.

فلهذه الدرجة كانت الأوقاف لها أثرها في ملاحظة حاجات الناس، وتصور كم من جبر لخاطر الخلق يكون في ميزان صاحب الوقف، وكم من خير، وكم من صغار تعلموا، وكم من كبار أنقذهم هذا العلم، أو هؤلاء المعلمين أو نشرهم، فهذا باب من الاستدراك عظيم، استدراك في الصدقة، استدراك في نفس جنس هذا الُموقف؛ فإن كان مسجدًا كان له أجور المصلين، وكان له أجور الإفطار في رمضان في هذا المكان، وإن كان في العلم كان أجور المتعلمين كلهم والمعلمين في ميزانه، هذا استدراك عظيم.

والوقف هذا من الشرائع العظيمة اللطيفة التي نرجو من الله أن يجعل لنا فيها نصيبًا عظيمًا، تستدرك حياتك بحياة أخرى، انظر إلى هذا الاستدراك الذي يندر أن يكون هناك شيء يشاركه، أو

نستطيع أن نقول: لا شيء يشارك الأوقاف في كونها تمد حياة صاحبها، فيستدرك حياته أضعاف أضعاف أضعاف، اللهم افتح لنا الأبواب، ويسر لنا هذه الأعمال، وارزقنا نية خالصة فيها يا رب العالمين، واجعلنا نلحق بك ونكون في قبورنا مستأنسين بهذه الأعمال يا رب العالمين.

على كل حال هذا باب واسع، وفروعه عظيمة، ولا يمكن أن نتكلم عنها كلها في هذه العجالة، يبقى هنا أن نتكلم عن الاستدراك بالنسبة لطلب العلم نفسه، طلاب العلم هؤلاء إذا صحت نياتهم فهم من خيرة الخلق، ومدح طلب العلم لا يخفى عليكم، والعلم هو: قال الله، قال رسوله، قال الصحابة أولو العرفان.

كيف أستدرك ما فاتني من العلم؟

هذا السؤال يقوله كل أحد في طريق العلم، لأن كل أحد في طريق العلم إلا وفاته شيء من العلم، كل أحد في طريق العلم إما يكون تعلم صغيرًا لكنه قل منه الاهتمام بما تعلمه، وكان شرودًا، وكان يُرغَم على العلم وهو لا يقبل عليه بقلبه، فلما كبر ندم على ما مضى، أو يكون طالب العلم ما تعلم إلا وهو كبير، وقد كثرت عليه الأشغال ويريد أن يستدرك هذا الأمر، فهذا سؤال من الجميع؛ سواء تعلم صغيرًا ولم يهتم بالتعليم، أو تعلم كبيرًا فكثرت أشغاله،

أو تعلم واهتم وحصل منه الإقبال على العلم، لكن العلم بابه واسع جدًا فلا زال يشعر بالنقص.

فهنا في هذه الجلسة -إن شاء الله- نقول -وغدًا نكمل-: أول الأمر وأهم الأمر أن نفهم أن هذا العلم شرف يؤتيه الله -عز وجل- من شاء من عباده، يعني من فُتح عليه باب العلم الشرعي فقد فُتح عليه خيري الدنيا والآخرة، لأنه بهذا العلم يحقق المراد من وجوده، فالله تعالى رفع مقام العلماء فقرن شهادتهم بشهادته وشهادة ملائكته على حقه العظيم.

فيقول عز وجل في آل عمران: {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [آل عمران:18] يعني والملائكة أيضًا شهدوا، {شَهِدَ اللَّهُ} فشهادته ما جعله مستقرًا في قلوبنا من فطرة سوية معترفة بألوهيته، شهادته عز وجل ما جعل من آيات كونية، ما جعل من آيات في الأنفس، هذه شهادة عظيمة، والملائكة شهدت على ألوهيته، فلتقبلوا شهادة الله وشهادة الملائكة.

ومن أيضًا شهد؟ وأولو العلم شهدوا بألوهية الله، والله -عز وجل- جعلهم شهداءه في الأرض، فما أعظم هذه الحال وهذه المرتبة، فكيف لا تطلب؟ وكيف لا يطلب الإنسان الاستدراك فيها؟! العلم

أصحابه مرفوعون عند الله، فالله ذكر أنه يرفع علماء الشريعة العاملين في الدنيا والآخرة {يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} [المجادلة :11].

هذا العلم الشرعي أصحابه هم أهل الخشية الحقيقية لله {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ} [فاطر:28]، العلماء هم الذين يخشون الله على الحقيقة كما في آية فاطر، وكما في آل عمران {وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا} [آل عمران :7]، فهؤلاء هم أهل الخشية، أهل الإيمان، أهل التسليم، قواد العالم.

إذا نظرنا في النصوص نجد أمورًا ما تخفى عليكم، لكن نحن نذكر أنفسنا بهذه الفضائل لكي نسارع في استدراك ما فاتنا من العلم، خصوصًا والشواغل التي لها أهمية أو التافهة قد شغلت كثيرًا من وقتنا، نستغفر الله ونتوب إليه.

الله تعالى لم يأمر نبيه أن يسأل الزيادة من شيء إلا من العلم {وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا} [طه: 114]، فما لنا مقتصدون في طلب العلم؟ ما للأيام والليالي تجري علينا ونحن لا نزداد. من الأدلة الظاهرة الواضحة على فضل العلم؛ أن الله تعالى اصطفى أهل العلم، ووصف ما عندهم بالفضل الكبير، ووعدهم بجنات عدن، فقال عز وجل: {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ

لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ} [فاطر: 32]

هؤلاء الذين سبقوا بالخيرات هم الذين ورثوا الكتاب وأخذوه بحقه، جنات عدن يدخلونها، سبحان الله! هذا العلم من فضله أن الله -عز وجل- قد جعل في الفطرة السوية أن صاحبه لا يستوي مع الجاهل {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ} [الزمر: 9]، الله وصف العلم بالروح لأنه تحيا به القلوب، وهو النور الذي يضيء للناس {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا} [الشورى:52].

هذا العلم العظيم كيف يزهد الإنسان فيه؟! ((ما اجتمَعَ قومٌ في بيتٍ من بيوتِ اللَّهِ يتلونَ كتابَ اللَّهِ، ويتدارسونَهُ فيما بينَهم إلَّا نزلَت عليهِم السَّكينةُ، وغشِيَتهُمُ الرَّحمةُ، وحفَّتهُمُ الملائكَةُ، وذكرَهُمُ اللَّهُ فيمَن عندَهُ)) [أخرجه مسلم في صحيحه].

هذا العلم العظيم الذي تفضل الله به على الخلق أراد الله به رحمة الخلق، وأراد أن يكون له من أهل الأرض أهلًا وخاصة، وقد أضاف النبي صلى الله عليه وسلم أهل العلم إلى الله تعالى إضافة تشريف وإجلال قال: ((إنَّ للَّهِ أَهْلينَ منَ النَّاسِ)) قالوا: يا رسولَ اللَّهِ ، من هُم ؟ قالَ: ((هم أَهْلُ القرآنِ، أَهْلُ اللَّهِ وخاصَّتُهُ)) [أخرجه ابن

ماجة (215)]، وقال ((خيرُكم من تعلَّم القرآنَ وعلَّمه)) [أخرجه البخاري في صحيحه].

وقال صلى الله عليه وسلم ((فَضلُ العالِمِ علَى العابِدِ، كفَضلِ القَمرِ ليلةَ البدرِ على سائرِ الكواكبِ)) [أخرجه أبو داود (3641)]. وإن العالم ليستغفر له من في السماوات والأرض، حتى الحوت في البحر، وفي رواية ((فضلُ العالِمِ على العابدِ كفضلي على أدناكُم)) [أخرجه الترمذي (2685)] ، يعني للرسول صلى الله عليه وسلم على أدنى الصحابة علمًا وإيمانًا.

النبي صلى الله عليه وسلم من أجل أن يبين لنا فضل هذا العلم قال: ((إنَّ اللَّهَ وملائِكتَهُ وأَهلَ السَّماواتِ والأرضِ حتَّى النَّملةَ في جُحرِها وحتَّى الحوتَ ليصلُّونَ على معلِّمِ النَّاسِ الخيرَ)) [أخرجه الترمذي] تصلي بمعنى تدعو وتستغفر له.

والحديث المشهور ((وَمَن سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فيه عِلْمًا، سَهَّلَ اللَّهُ له به طَرِيقًا إلى الجَنَّةِ)) [أخرجه مسلم في صحيحه]، يعني أيّ طريق يسير فيه الإنسان ليصل إلى العلم، ويجتهد فمثلًا يشتري كتبًا أو يسمع دروسًا أو يقرأ، هذا الأمر الذي يسلكه يسلك طريقًا يوصله إلى رب العالمين وإلى جنات النعيم.

الملائكة تحب أهل العلم وتضع أجنحتها لهم في الطرق والمسالك إكرامًا لهم وإجلالًا، قال صلى الله عليه وسلم ((بلغني أن المَلائكةَ تَضَعُ أجنِحَتَها لطالِبِ العِلْمِ رِضًا بما يفعل،..)) [أخرجه والترمذي (2682)]، وعندما تبحث في حال الصحابة تجد الثناء على معاذ بن جبل -رضي الله عنه- كما في الحديث: ((مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ أَمَامَ الْعُلَمَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِرَتْوَةٍ)) [رواه الطبراني] والسبب العلم.

فهذا وغيره، ما نستطيع نحن أن نجمع كل النصوص الآن، لكننا فهمنا من هذا كله أن الله يحب العلم، ويحب منا أن نتعلم، وأنزل كتابه على رسوله، ورسوله -صلى الله عليه وسلم- بلغ الوحي لأجل أن يكون الاهتمام بهذا الذي نزل، فلذلك العلم له منزلة عظيمة، الآن ونحن مختلفون في سنوننا، مختلفون في أوضاعنا، مختلفون في قدراتنا كيف يمكن أن نستدرك جميعًا هذا العلم؟

إن شاء الله هناك خطة لاستدراك العلم نبتدأ مناقشتها في لقائنا غدًا بإذن الله، بارك الله للجميع في أوقاتهم، وجعل ما بقي من أعمارنا سبب لفلاحنا اللهم آمين.

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، نحمد الله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا، ونسأله بمنه وكرمه أن نكون ممن اغتنم عمره ليصل إلى ربه سالمًا غانمًا، اللهم استر عوراتنا، وآمن روعاتنا، واحفظنا من بين أيدينا ومن خلفنا وعن أيماننا وعن شمائلنا ونعوذ بك أن نغتال من تحتنا.

كم هو عمر الإنسان نعمة عليه لو استطاع أن يغتنمه، فإن فاته اغتنام أول الحياة، فليستدرك ما فاته في كل باب بهذا الشرع العظيم الذي شرعه لنا ربنا الرحيم، ففي كل باب من أبواب القربى إلى الله فرصة للاستدراك، ومن ذلك طلب العلم فإن طلب العلم باب من أبواب القرب كما تبين لنا فيما مضى في اللقاء الماضي، بل طلب العلم من أعظم القرب بعد الفرائض لمن حسُنت نيته.

وفي اللقاء الماضي مر معنا شيء من الكلام عن هذا الفضل، ونبقى نذكر أنفسنا بفضل العلم، لكي يحصل في قلوبنا رغبة عظيمة، فنرغب أنفسنا في طلب العلم كلما حصل في النفس حالة من البرود على موضوع العلم، والإحساس أننا فاتنا الأمر، وهذا الشيطان حريص على أن يصوره لنا بهذه الصورة، كلما حصل

مثل هذا الأمر وجب علينا أن نراجع النصوص التي تجعل في نفوسنا الهمة لذلك.

وأذكر لكم في هذا المقام قولًا مشهورًا لمعاذ -رضي الله عنه- ذكره المنذري في الترغيب والترهيب، وهو من أحسن ما ترغب به نفسك أيها المقبل على الله، من أحسن ما ترغب به نفسك في طلب العلم بعد أن تسمع النصوص في الكتاب والسنة، أن تسمع قول معاذ -رضي الله عنه- يقول:

"تعلَّموا العلمَ؛ فإنَّ تعلمَهُ للهِ خشيةٌ، وطلبَه عبادةٌ، ومذاكرتَه تسبيحٌ، وتعليمَه لمن لا يعلمُه صدقةٌ، وبذلَه لأهلِه قربةٌ، لأنه معالمُ الحلالِ والحرامِ، ومنارُ سُبلِ أهلِ الجنَّةِ، وهو الأنيسُ في الوحشةِ، والصاحبُ في الغربةِ، والمُحدِّثُ في الخلوةِ، والدليلُ على السرَّاءِ والضرَّاءِ، والسلاحُ على الأعداءِ، والزينُ عند الأخلاءِ، يرفعُ اللهُ به أقوامًا، فيجعلُهم في الخيرِ قادةً، وأئمةً تُقتصُّ آثارُهم، ويُقتدى بفعالِهم"

" تعلَّموا العلمَ فإنَّ تعلمَهُ للهِ خشيةٌ" يعني من كان صادقًا في طلب العلم فإن تعلمه سبب لخشية الله، بل تعلمه العلم دافعه لخشية الله، فدافع العلم خشية الله، ونتيجة العلم خشية الله، لأن من خاف الله

وخشيه أحب أن يعرف محاب الله ومباغضه، فتعلم لأجل ذلك، فإذا تعلم كانت الخشية أعظم،

"وطلبَه عبادةٌ" نفس طلبك للعلم عبادة؛ أنت في حال المدارسة، وفي حال السماع للعلم، وفي حال القراءة له، وفي حال مذاكرته، وفي حال البحث عنه، أنت في عبادة.

"ومذاكرتَه تسبيحٌ" أن تتذاكر هذا العلم، وتحرره، وتكتبه، وتناقشه مع إخوة لك، وتعيده على نفسك، وتذكر نفسك به، في هذا كأنك من المسبحين كما يقول معاذ -رضي الله عنه-.

"والبحثَ عنه جهادٌ" أمور تغيب عنك وتود أن تعرفها، فتبذل الجهد لمعرفتها، فأنت في بحثك عنها في بطون الكتب وعلى ألسنة أهل العلم أنت في جهاد.

"وتعليمَه لمن لا يعلمُه صدقةٌ" -الله أكبر!- أصبح العلم ممكن تستدرك به كل هذه الأبواب؛ عبادة من العبادات، تسبيح، جهاد، صدقة.

"وبذلَه لأهلِه قربةٌ" قربة إلى الله، هناك نوع من العلم تحتاج أن تعلمه لكل من لا يعلمه، وهناك نوع من العلم تعلمه لطلبة علم مقبلين يريدون الحق، فتعليمك لهم هذه قربة إلى الله.

"لأنه معالمُ الحلالِ والحرامِ" العلم طلبه هو الذي يرشدنا فنعلم ما هو الحلال وما هو الحرام، فبه تأتي علامات الطريق، "ومنار سبيل أهل الجنة" أي أن هذا العلم الذي يسلكه كأنه رأى منارة من بعيد، منارة الجنة رآها، المنارة معلومة؛ مثل منارة المساجد، والمنارات التي تكون في الطرق تدل الناس على الطريق، فالعلم منارة من يراها ويتبعها إنما هو ذاهب إلى الجنة، فالعلم منار سبيل أهل الجنة.

"ومنارُ سُبلِ أهلِ الجنَّةِ، وهو الأنيسُ في الوحشةِ، والصاحبُ في الغربةِ، والمُحدِّثُ في الخلوةِ، والدليلُ على السرَّاءِ والضرَّاءِ، والسلاحُ على الأعداءِ، والزينُ عند الأخلاءِ، يرفعُ اللهُ به أقوامًا، فيجعلُهم في الخيرِ قادةً، وأئمةً تُقتصُّ آثارُهم، ويُقتدى بفعالِهم" اللهم اجعلنا من هؤلاء أئمة في الخير ندل على الخير يا رب العالمين.

على كل حال هذا كله يجعلنا نحب العلم، ونرغب فيه، ونطلبه ونبذل فيه الغالي والثمين، نبذل فيه أوقاتنا، ونعلم أنه طريق للاستدراك، يعني بالعلم تستدرك أمورًا أخرى من العبادات والطاعات تكون بالنسبة لك أبوابًا بعيدة صعبة، مثلًا إن كنت لا تملك الصدقة فتعليم العلم لمن يحتاجه صدقة، الجهاد باب لا تعرف

بلوغه، فالبحث عن العلم جهاد، فهذا باب عظيم من أبواب الاستدراك.

كيف أستدرك طلب العلم؟

طلب العلم هو باب عظيم، وقد شعرت بأهميته من خلال النصوص الدالة، لكن أنا تقدمت في العمر وليس عندي قوة للحفظ، أو قوة للبحث، فكيف أستدرك ما فاتني من العلم حتى أستدرك طاعة الله، ومحبة الله، وخشية الله؟

نعم هذا هو موضوعنا، ولنبدأ بمجموعة نقاط نسأل الله -عز وجل- أن يجعلها مباركة علينا، وأن تنفعنا في دنيانا، وتنفعنا في أخرانا، اللهم آمين.

الوصية الأولى: أولًا وأهم شيء في هذا الموضوع كله: المبالغة في الإلحاح على الله بالدعاء أن يفتح لنا أبواب العلم، اللهم افتح لنا أبواب العلم واجعلها سببًا للرفعة عندك يا رب العالمين، اللهم إنا نسألك الإعانة على طلب العلم، اللهم إنا نسألك الإخلاص في طلب العلم.

هذا أمر مهم، وقد ذكر أهل العلم مقولة عظيمة في هذا، يقولون: "والله لن يصل أحد إلى شيء إلا بالله، فكيف يُوصل إلى الله بغير

الله؟!" لن نصل إلى شيء إلا بالله، فلنكن مجتهدين في دعاء الله أن يفتح لنا باب العلم، لا تلتفت لأيّ أمر آخر قبل هذا الأمر، ولا تصعب على نفسك مسألة طلب العلم بأيّ حواجز؛ من السن، أو من الانشغال، أو من البعد عن أماكن العلم، مثلًا عدم توفره حولك، أو تقدمك في العمر، أو كثرة انشغالك اترك هذا وابدئ بالتركيز على الإلحاح على الله في أن ييسر لك طلب العلم، وليظهر منا لله -عز وجل- الحاجة والإلحاح والتضرع -والله المستعان-.

نأتي بعد ذلك إلى أمر مهم:

الوصية الثانية: وهي الاستفادة من أوقاتنا حسب أحوالنا، هنا -كما يعبرون- الخطة مرنة؛ انظر أولًا إلى أحوالك، انظر إلى مشاغلك وحدد اللازم منها، والضروري الذي لا تستطيع تركه أبدًا؛ مسؤوليات في البيت، مسؤوليات في العمل، هذا الأمر رتبه أولًا، وإذا كانت هذه الأشياء لا تستطيع الاستفادة منها في طلب العلم فتخرج خارج وقت العلم، بمعنى ممكن يكون عندي مسؤوليات في البيت أستطيع وقت قيامي بهذه المسؤوليات أني أسمع شيئًا من العلم، حتى لو كنت ليس بكامل التركيز، فهذا وقت أضيفه للعلم، لكن هناك مسؤوليات لا أستطيع حتى أن أستفيد من وقتها في أيّ شيء، حتى ولو بنصف التركيز.

مثلًا نفترض أنكِ أم تعلمين أبناءك، وتدرسينهم دروسهم الخاصة بمدرستهم، وهذا الشيء يأخذ منك وقتًا طويلًا، ولا يمكن في هذا الوقت أن تُدخلين على تدريسك لهم أنك تتعلمين، فهذا الوقت يخرج من وقت العلم، لكن مثلًا أنتِ تطهين لأهل البيت طعامهم، وطهو الطعام ما يحتاج التركيز الذهني العالي جدًا، خصوصًا للمرأة التي هي متمكنة من القيام بهذه الأعمال نتيجة خبرتها، حيث علمها الله ويسر عليها عملية الطبخ هذه، فيصبح هذا الوقت يمكن أن تسمعي فيه العلم ولو بنصف تركيز، فالمطلوب في هذه الخطوة لأستدرك ما فاتني أني أرى في أوقاتي، وأنظر إلى مشاغلي وأحاول بقدر المستطاع أن أحدد على حسب وضعي الخاص، وأقسم الأوقات إلى:

أوقات ذهبية لطلب العلم.

أوقات فضية لطلب العلم.

أوقات أقل من ذلك لطلب العلم.

وأهتم بهذه الأوقات التي أرى أن في هذا الوقت يمكنني أن أحفظ، أو يمكنني أن أدرس وألخص، وأحافظ على هذه الأوقات غاية الحفاظ.

فهذه كانت الوصية الثانية لأجل أن أستدرك ما فاتني من طلب العلم، أيًّا كان عمري، أيًّا كانت مسؤولياتي، أيًّا كان وضعي يجب أن أحدد أوقاتًا أكون فيها متخفف من مشاغلي، فتكون خطتي مرنة، قد تكون هذه الأوقات في آخر الليل، فمثلًا إذا قمت لصلاة القيام صليت وأوترت، وبقي معي ربع ساعة أو عشرون دقيقة، أخصص هذا الوقت وأجعله لطلب العلم، وسنرى بعد ذلك عندما أستدرك في العلم أبدأ بماذا؟ لكن الآن الخطة:

أولًا: تنظر إلى أوضاعك الخاصة، بحيث أن ترى كل الأشياء التي لا قيمة لها، وليس مطلوب منك أن تتخفف منه تمامًا، مثل متابعة وسائل التواصل مثلًا، هذه تحاول أن تخفف منها من أجل أن تنتفع من هذا الوقت في طلب العلم، وأحيانًا المسألة تكون بالعكس؛ فبالنسبة للناس الذين ليس عندهم مسؤوليات، يكون من كثرة الأوقات التي أملكها لا أعرف أيّ وقت أغتنم في طلب العلم؟

نقول في كلتا الحالتين -كان الوقت ضيقًا أو كان الوقت واسعًا- لا بد أن تطلب لنفسك وقتًا وتحدده على حسب وضعك وظروفك، ويكون تركيزك عالي بقدر ما تستطيع، يعني أعلى تركيز لك، ولا تقارن تركيزك بغيرك، أعلى تركيز لك اعتبره هو الوقت الذهبي لطلب العلم، ثم عندك وقت تركيزك فيه أقل اعتبره الوقت الفضي

لطلب العلم، ثم سائر اليوم نلح على الله في أن يفتح لنا، ويبارك لنا فيما رزقنا من العلم، إذن هذه الوصية الثانية.

الوصية الثالثة: هي الاعتناء بالقرآن والسنة اعتناء عظيمًا، وهنا كأننا نتكلم عن خطتنا في الاستدراك.

يأتي أحد يقول: العلم واسع ماذا آخذ من العلم؟

فنقول أول العلم وأهم العلم هو (قال الله، قال رسوله)، هذا أهم العلم فنبدأ وننطلق من هنا، فالآن ممكن تقول أنا عمري خمسون عامًا أو فوق الخمسين وحتى جزء عم الذي كنت أحفظه الآن تفلّت مني، نقول: لا بأس نحن نتكلم عن الاستدراك، هل هناك فرصة للاستدراك؟

نعم هناك فرصة، ولذلك الإلحاح على الله التي هي النقطة الأولى في الاستدراك يجب أن تلح وأنت مليء بالأمل في الله -عز وجل-، مليء بالأمل في أن تستدرك بفضله ما فاتك، يجب أن يكون الأمل في الله كبير، ولا يكون هناك أيّ مشاعر يأس أو قنوط أبدًا، بل يكون في قلبك أمل عظيم في رب العالمين؛ أنه سيعينك وييسر لك، ويقبل منك جهدك.

فتبدأ بالمراجعة والجدولة بأيّ وسيلة من الوسائل التي تناسبك، فإن كنت ممن يحتاج إلى رفيق يسمّع لك ويقرأ معك فاطلب من الله أن يرزقك، واستفِد من الفرص الحاصلة حولك؛ يوجد مدرسون للقرآن، ويوجد برامج، ويوجد مدارس تحفيظ عن بعد وعن قرب، فالذي يتيسر لك، لكن اجعله غاية، وليري ربنا منك رغبة في أن تحفظ كتابه، ولنبدأ بجزء عم، حتى لو كنت تحفظه فيما سبق، الآن وأنت كبير المراجعة يكون لها أثر مختلف على النفس، التكرار هو وسيلة الحفظ، فكرر وأنت تتقرب إلى الله بهذا، متع نفسك بالقرآن، متع نفسك بمراجعته، متع نفسك بتكراره، واحتسب على الله كل فعل تفعله.

وهذه من ميزات الحفظ والإنسان متقدم في العمر، الذي يحفظ وهو متقدم في العمر نيته تسهل عليه العمل، أما من حفظ في الصغر فقليل جدًا أن تجد أحدًا أدرك النية، وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء، نحن نفكر في الأجور عند الله الذي وصفه أنه غفور شكور، فلا تتثاقل أبدًا، هذه تجارة لن تبور، ومشروع لا يخسر، ورأس المال هو وقتك وجهدك، وكتاب الله بين يديك، والأدوات اليوم غاية في التوفر.

فابدأ بمراجعة جزء عم، واجتهد في مراجعتك، وأن تقرأ من هذا الذي تحفظه في الليل، وانظر كيف كتب الناس خططًا للحفظ، واتبع الخطة الأيسر لك والأسهل، اسمع القرآن وكرره حتى لو كان شاقًا عليك، لأن بعض الناس يكون القرآن شاقًا عليهم نتيجة أمور ربنا خلقها في الخلق مختلفين فيها، فيكون شاقًّا النطق به، أو ضبط كلمات القرآن، وهذا كله أجر ولا يعيقك أبدًا، والجهد الذي تجتهده تجده في الحسنات في الميزان ينفعك عند الله.

الطموح أن نحفظ كتاب الله كاملًا، لكن الواقع أننا لم نتعدّ بعد جزء عم، لا بأس، فبالنية الصادقة مع الاجتهاد في العمل يأتي الإنسان يوم القيامة ويجد جبالًا من الحسنات لصدق نيته ولشروعه في العمل، فإذا قطعته المنية ومات قبل ذلك فإن الله غفور شكور؛ يشكر للعبد العمل القليل ويعطيه عليه الأجر الكثير، ويشكر له نيته، ويجعله كمن حفظ القرآن.

فهذه الوصية الأولى: أن استدراك حفظ القرآن أمر ميسور على الإنسان مهما كان عمره، بالدعاء، وصدق النية، وكثرة سماع القرآن، وتكراره على اللسان، بحيث أن السماع والتكرار يكونان سببًا لتثبيت القرآن في القلب، والله هو المسؤول أن يثبت القرآن في القلب.

ولا تيأس من نفسك أبدًا، واستعمل كل وسيلة حديثة توفرت اليوم لحفظ كتاب الله، واستعن على ذلك بكثرة المراجعة، وإذا وجدت نفسك قد ثبت عندك هذا الجزء الحمد لله، فلتنتقل إلى غيره مع مراجعة له، فإذا انتقلت لغيره؛ فانتقلت مثلًا إلى جزء تبارك، ثم أتيت تصلي بجزء عم وجدت نفسك أخطأت، فهذا لا يجعلك تترك تبارك وتعود إلى عم، لا، هذا يجعلك تكمل في تبارك وتراجع هذا الأمر الذي أخطأت فيه في جزء عم، وهكذا ...،

فأنت اقبل من نفسك الإنجاز المتوسط بحيث أنك تستطيع أن تحفظ أكثر سور ممكنة، حتى لو كان بإتقان متوسط، الإتقان يأتي مع كثرة المراجعة، والذهن يتنشط مثل ما يتنشط البدن، بل هو أكثر نشاطًا من البدن، بل الإنسان عندما يتقدم في العمر فإن رغبته وتركيزه في المعاني تجعل ذاكرته أنشط من الصغير، والله على كل شيء قدير، لا تستعجبوا من فضل الله؛ رحمة الله وبركاته على المؤمنين عظيمة، اللهم افتح لنا أبواب رحمتك، يسر لنا حفظ كتابك يا رب العالمين.

وكما أننا سنعتني اعتناء عظيمًا بحفظ القرآن، فإننا أيضًا سنعتني بالنظر في أحاديث النبي -صلى الله عليه وسلم- في مراجعتها، وفي مناقشتها، وفي حفظ بعض ألفاظها، نهتم جدًا بأن يكون

منطوق ومفهوم الأحاديث واضحًا في أذهاننا، وهنا تجد الحمد لله خيرًا كثيرًا جدًا قد يسره الله بسبب هذه الأدوات الحديثة، وتجد كثيرًا من الدروس المباشرة اليومية التي ممكن أن تكون مثلًا منقولة من المسجد النبوي، أو منقولة من المسجد الحرام، أو منقولة من بعض المساجد تنشط كثيرًا في قراءة كتب السنة، مثلًا قراءة الأربعين النووية، ممكن قراءة رياض الصالحين، ممكن قراءة أبواب كتب من صحيح البخاري، أو صحيح مسلم، فهذا كثير الحمد لله.

الخير كثير، فأنت ألزم نفسك ببعض الخير، إذا كنت تحب أن تلزم الدروس المباشرة فابحث عنها، ويكون أصحابها ثقة من أهل السنة، واسمع كل يوم درس، فهذه نقطة على نقطة يحصل بها الاستدراك لما مضى.

معنى ذلك أننا سنهتم وننطلق من الوحي؛ من كتاب الله وسنة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- معتقدين أن من عرف هذا الأمر العظيم -الذي هو الكتاب والسنة- فقد عرف العلم وأصوله، وتظهر على أصحابه آثار العلم، وهنا تظهر بركة العلم على الإنسان من انشراح الصدر، والانشغال عن الهموم، فلا تجعل قواطع الحياة تقطعك عن هذا العلم، بل اجعل العلم يقطعك عن هموم الحياة، لأن

الحياة لا تنتهي همومها، وإذا اهتميت بصغيرها جاء كبيرها وقضى عليك، لكن اجعل العلم يمحو عنك هموم الحياة، ويأخذك بعيدًا عن وساوس الشيطان، والله المستعان.

نأتي الآن إلى الخطوة التالية، وهذه الخطوة تكون لمن وفقه الله فابتدأ بالخطوة السابقة،

عندنا ثلاث خطوات:

الخطوة الأولى الإلحاح على الله في الدعاء.

الخطوة الثانية هي النظر إلى أحوالنا وأوقاتنا واختيار الأفضل فيها، ومحاولة التخفف من المشاغل قدر المستطاع.

الخطوة الثالثة: هي العناية بالوحي، لا يوجد طلب علم يسبق العناية بالقرآن والسنة، ومهما كان عمرك ومهما كان حالك ابتدئ بحفظ القرآن وبمراجعة السنة ما استطعت إلى ذلك سبيلًا، هذا هو طلب العلم الحقيقي؛ أن تبدأ من هنا، من حفظ القرآن وسماع السنة وفهمها.

الخطوة الرابعة: الانكباب على فهم كلام الله، وهذا ممكن أن يكون موازيًا ومتماشيًا مع الحفظ، حيث تفهم وتدرس كلام الله وتحفظ في نفس الوقت، أو تحفظ كلام الله -مثلًا جزء عم- وتعرف المعاني

الإجمالية للسورة التي تحفظها، يعني ما تتعدى السورة وهناك كلمات أو معاني إجمالية لم تفهمها.

نفترض أن هذا سيرك؛ حفظت جزء عم ثم انتقلت لتبارك، وكل سورة تقرأ مجملها؛ تقرأ مثلًا من التفسير الميسر، ينبغي أن يكون هناك وقت أفهم فيه كلام الله بشيء من التفصيل، أستزيد فيه من علوم القرآن، يعني أكون مشغولًا بالقرآن انشغالًا يشغل عليّ جميع حواسي، فهذه مثلًا نفترض سورة البقرة، أو هذه سورة آل عمران، أو هذه مثلًا النساء، أو هذه مثلًا سورة يونس، أو هذه التوبة، آتي إلى هذه السورة بسبب مثلًا أني أريد أن أعرف ما هو النفاق؟ وعرفت أن سورة التوبة هي الفاضحة للمنافقين، أنت خائف من النفاق وشاعر بخطره، فماذا تفعل؟

تجعل سورة التوبة هي مدار بحثك، وتبدأ تقرأ مطلعها، وماذا قال أهل العلم فيها؟ ماذا قال المفسرون المعتمدون؟ وهنا طبعًا لا بد أن يوجد اختيار لأهل التفسير، لكيلا تتخبط، ودائمًا ينصح في مثل هذه الأمور أن يشير عليك عالم أو طالب علم كبير بخطة منهجية لدراسة السورة، لكن دراسة السورة لن تتعدى كلام المفسرين من الأئمة الكبار مثل الطبري، وابن كثير، فيمن سبق، ومثل الشيخ السعدي في المعاصرين، ويكون منك عناية واهتمام بكل آية؛ ماذا

تعلمك عن الله؟ ماذا تعلمك عن الدين؟ ماذا تزيد في عقيدتك؟ ماذا تعلمك في الإيمان بالغيب؟

فدراسة سورة واحدة يحصل منه استدراك عظيم لعقيدتك ولإيمانك ولمسلكك، فالبركة في هذا القرآن عظيمة، يعني أيّ سورة تختارها لتدرسها ولتفهمها ستجدها تفتح لك آفاقًا عظيمة، وتصلح في نفسك أمورًا كثيرة، ويتسلل إلى قلبك الإيمان ألطف ما يكون بقدرة الرحمن -سبحانه وتعالى-، فهنا تتعجب من قدرته وقوته سبحانه وتعالى التي بها يفتح القلوب المنغلقة، وبها يغير النفوس.

بكلامه عز وجل يحصل نقلة عظيمة جدًا في النفس الإنسانية، ومثل هذا لا نستطيع نقله، وإنما من جرب عرف كم للقرآن من أثر! فلا تأتِ على كتاب الله تهجم عليه وتريد أن تفهمه كله، وتقول: "لا، أنا لا بد أن أنتهي من البقرة، وآل عمران، وأنتهي من فهم القرآن كاملًا، ما أريد أن أموت إلا وقد فهمته كاملًا"، نعم، هذا خير كثير ونية طيبة، لكن للقرآن ميزة؛ من أينما ابتدأت، وأيّ شيء درست وبذلت وفهمت، أزهر في نفسك الخيرات العظيمة، واستدركت بدراسة سورة دراسة عميقة أشياء كثيرة، تكون فاتت عليك من كل باب؛ في التفكير، وفي فهم الحياة، وفي إصلاح النفس.

والله إن هذا القرآن آية عظيمة، تكون آية مطلقة كافية للصادقين أن يعودوا لرب العالمين، فإن في طيات كلام الله مما يصلح النفس، ويصلح الحياة، ويطيب الخواطر ما لا يمكن لأحد حصره، ولا يمكن للألسنة وصفه، والله المستعان وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

فكانت هذه الخطوة الرابعة: الانكباب على سورة معينة لدراستها، وهذا مختلف عن الحفظ، أو يمكن أن يكون يوافق الحفظ، كما ترون وكما هي أوقاتكم وأحوالكم، لكن الدراسة التفصيلية هذه تحتاج من الإنسان وقتًا ومناقشة وفهمًا، فلذلك من أسباب الاستدراك لحياتنا في طلب العلم أن نُرزق بصحبة نستطيع معها أن نتدارس ونتناقش، فتنضج الأفكار وتحصل الخيرات بإذن الله.

أيضًا نحتاج تحت هذه النقطة -التي هي مسألة الانكباب على سورة من القرآن- أن نقوي أنفسنا في الاستشهاد بكتاب الله في حياتنا، وإظهار هذه الآيات التي أدرسها في محيطي، فكم في القرآن من إشارة إلى السماوات والأرض! وكم في القرآن من إشارة إلى الشمس والقمر وإلى الليل والنهار! وكم في القرآن دعوة للعقلاء وإلى التفكر في ذلك! وكم فيه أوصاف للمتفكرين بأنهم قوم يعقلون وقوم يتفكرون وقوم يشكرون! فهذه من طرق استدراك ما فاتنا في

طلب العلم، أن نأتي إلى أوامر القرآن وإرشاداته وتأخذ حيزًا في حياتنا كبيرًا، نمتثل في سلوكنا، ونمتثل في تفكيرنا.

فمن أعظم العبادات التي بها يستدرك الإنسان ما فاته في طلب العلم وفي آثار طلب العلم الاشتغال العظيم بالتفكر، أمر مهم غاية في الأهمية نستدرك به ما فاتنا من طلب العلم، وأقصد بالتفكر التفكر فيما أمرنا الله بالتفكر فيه، فاقرأ في القرآن ماذا أمرنا الله بالتفكر فيه؟ وكيف مدح أولي الألباب بأنهم يتفكرون؟ كيف هي النتائج التي يخرج بها أولو الألباب من تفكرهم في العلم؟

وهنا أيضًا نلاحظ أمرًا من أبواب الاستدراك، ونأتي هنا

للنقطة الخامسة: من أجل أن يحصل استدراك للعلم اجعل معيار تقدمك في طلب العلم واجعل معيار الإنجاز -كما يعبرون- هو الساعات، يعني كم من الوقت من يومك أعطيت لهذا العلم؟ بحيث إنك كلما زدت في الأوقات المخصصة لطلب العلم، ثبت العلم في قلبك وحصل حالة من الاستدراك، فإذا رزقت أيامًا تستطيع فيها أن تزيد وقت طلب العلم فالحمد لله، لكن المهم لا يقل عن حد معين.

فلنفترض أنك حددت للعلم في يومك ساعة تحفظ فيها القرآن، وتفهم الآيات، وتسمع درسًا عن أحاديث النبي -صلى الله عليه وسلم-، تسير بهذه الخطة البسيطة لكيلا تتشتت بعيدًا، أنت حددت

مثلًا ساعة، ثم جاءت أيام أصبح عندك فرصة أكبر، إذن استدرك؛ احفظ أكثر، راجع واقرأ أكثر الحمد لله، لكن لو ضاق عليك الوقت فاحرص على الساعة.

إذن إذا أتاك متسع زِد، وإذا ضاق عليك الوقت احفظ ساعتك هذه التي حددتها للعلم، وبهذا يكون معيارك -بإذن الله- منضبطًا.

فمثلًا تريد أن تسمع شرحًا لرياض الصالحين، وهذا الشرح مكون من ستين حلقة شرح فيها الشارح كتاب رياض الصالحين،فالمطلوب منك أن تجعل في كل يوم ساعة للسماع، بحيث تنتهي في ستين يومًا، تأتي في أيام فتجد أنك تستطيع أن تسمع أكثر، نقول: الأصل أنك تحافظ على هذه الساعة كما هي، ولا تضغط نفسك فيحصل انقطاع بعد ذلك، أو يحصل في نفسك ملل، أو يحصل قلة انتفاع من المادة، قد تقول: عندي فرصة في هذه الأيام، نقول: زِد مثلًا من مراجعة القرآن، زِد من فهم الآيات بحيث أن يكون تركيزك -هذا هو المهم- منضبطًا على هذا العلم الذي تأخذه، فليس المقصود فقط أنك تسمع وتسمع، المقصود ضبط العلم والتركيز فيه، وهنا تأتي المسألة الخامسة .

المسألة الخامسة: وهي مسألة ضبط العلم والتركيز فيه، فإذا زاد عندي وقت في يومي أراجع وأتأكد من الحفظ، لأن ضبط العلم هو

الفرق الجوهري الذي يميز طالب العلم عن غيره، ضبط العلم هو حق للشريعة، {بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ}، والنبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((نَضَّرَ اللهُ امرأً سمِعَ منَّا شيئًا فبلَّغَهُ كما سمِعَهُ)).

فضبط العلم يساعدك عليه وجود أوقات زائدة عن الأوقات التي حددتها للعلم، وبهذا تفهم معنى تكرار الآيات، وتفهم لماذا مطلوب أن الذي سمعته من مادة يمكن أن تسمعه مرة أخرى؟ تفهم ما معنى كتابة رؤوس أقلام، أو كتابة شيء من التفاصيل تضبط لك هذا العلم؟ لكيلا يكون الأمر في داخلك كأنه مزيج ما انفصلت مكوناته، بحيث تفيدك عندما تحتاج كل مكون وحده.

نحن نريد أن يكون هذا المزيج متراكبًا، امتزج مع فؤادك، ونريد أيضًا أن يكون منضبطًا ليكون العلم في يدك ويكون هناك شيء من التمكن من هذا العلم.

قد تسأل الآن: هل فقط لأستدرك العلم أعتني بالكتاب والسنة وأتعلمهما وأترك غيرهما؟ هذا أصل موضوع الاستدراك، ومسألة طلب العلم هذه تُشرح في مكانها، لكن هنا أنا أتكلم عن الاستدراك في العلم، العلم من بين الأمور التي تستدركها، ركز وأنت تتعلم على هذه الأمور؛ على حفظ لكتاب الله، وعلى مدارسة لكتاب الله،

وعلى معرفة بسنة النبي -صلى الله عليه وسلم-، وفهم لها والعمل بهما،

هذا للاستدراك.

وهناك علوم الآلة؛ هناك علوم اللغة، هناك البلاغة، هناك الفقه، هناك أصول تفسير، نقول نعم هذا أمر مهم وهو يعين على طلب العلم، لكن هذا ينصح به لمن تفرغ للعلم، ينصح به طلبة العلم الصغار، الذين يريدون أن يكوّنون آلات ثم يكوّنون عقلية علمية، فيتعلمون ويعلمون وينتجون، ويجب أن يكونوا في هذا من المخلصين، فهناك يُنصح بهذه الأمور، لكن في الاستدراك نقول أهم أمر في هذا الاستدراك هو الانكباب على كتاب الله، والانكباب على سنة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، والعناية بهما لإصلاح النفس وإصلاح من تحتنا.

نسأل الله -عز وجل- أن نكون صالحين مصلحين، وأن نكون بهذا الفقه -فقه الاستدراك- في غاية من الأمل والرجاء في الله، وتكون أمانينا عظيمة فيه -سبحانه وتعالى-، وحسن ظننا به عظيم أن ينجينا من النار، ينجينا من الفزع الأكبر، ينجينا من الوحشة في القبر، وأن يجعل أعمالنا خالصة له.

وننتهي بما ابتدأنا به؛ فنذكر أنفسنا بأن هذه الشريعة الغراء -التي يزيدنا التأمل فيها حبًا لله- فتحت أبوابها للخلق مهما كانت أحوالهم، وجعلت الإخلاص والصدق هو حاملهم إلى ربهم، ومن أعظم الأعمال التي نختم بها -كما بدأنا بها وتدل على سعة رحمة الله- التوبة من أعظم أبواب الاستدراك، فالإنسان يوم القيامة سيجد خيرًا كثيرًا إذا وجد استغفارًا كثيرًا في صحيفته، فعليكم بهذا الأمر العظيم، وليكن منا على بال التوبة والاستغفار أصل في الاستدراك، فلا يخلو منه يومكم وليلتكم، ومراجعة ما مضى من الكلام حول الاستدراك بمعناه الواسع في جميع أمورنا، هذا بإذن الله ينفعنا في الوصول إلى ربنا.

بهذا نكون قد انتهينا من الكلام في ستة لقاءات عن فقه الاستدراك، والحمد لله رب العالمين.